كلاسيكيات عالمية

A STUDY IN SCARLET

الرواية التي شهدت الظهور الأول للمحقق شيرلوك هولمز





آرثر كونان دويل

دراسة في القرمزي

ترجمة : ميسره الدنداوي

الرواق للنشر والتوزيع

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كلاسيكيات عالمية..

رواية..

دراسة في القرمزي

آرثر كونان دويل

ترجمة: ميسرة الدندراوي

الرواية التي شهدت الظهور الأول للمحقق شيرلوك هولمز..

نبذة عن الرواية

تُعَد رواية "دراسة في القرمزي" هي الرواية التي تشهد الظهور الأول للمحقق الأسطوري شيرلوك هولمز، تُترجم كاملة للمرة الأولى بين يدي القارئ العربي.

من أجواء الرواية: "إنها لندن في العام 1886، لندن الصاخبة التي تمتلئ بالمهاجرين والمتشردين والجماعات السياسية والباحثين عن الفرص من كل مكان، وفي وسط كل هذا تجد الشرطة جثة لقتيل أميركي في أحد البيوت المهجورة، وأمام عجز محققي سكوتلانديارد عن حل لغز الجريمة، يستعينون بالمحقق الخاص شيرلوك هولمز، الذي يحل لغز الجريمة الغامضة، ويكتشف أنها ليست جريمة قتل عادية، وأنها ليست كما تبدو على الإطلاق!".

إهداء المترجم

إلى الفكرة التي صنعت الأسطورة، إلى آرثر كونان دويل.

إلى أبي وأمي، أول من وضعا في يدي كتابًا يحكي عن أسطورتي المفضلة شيرلوك هولمز..

تقول الدراسات التي أجرتها إحدى كليات الآداب والفنون، إن خمسة أطفال بريطانيين من أصل ستة ولدوا في القرن العشرين، يعتبرون شيرلوك هولمز مثلاً أعلى، ودليلاً حقيقيًّا على تفوق الإمبراطورية البريطانية، عقليًّا وليس عسكريًّا.

نعم، ما قرأته الآن يشكل حقيقة لا تنكرها العين، ففي أحد الحوارات التي أجريتها مع ثلاثة من المواطنين البريطانيين، تتراوح أعمارهم بين السابعة والثلاثين والستين، من بيئات ثقافية ومالية مختلفة، كان رد فعلهم هو السعادة البالغة والفخر الشديد، وذلك عند ذكري أن شيرلوك هولمز هو أول من يتبادر إلى ذهن أي إنسان، عند ذكر بريطانيا، وأن شيرلوك يتفوق بفارق كبير، من حيث الشهرة، على العميل الاستثنائي العابث جيمس بوند، والذي يأتي ثانيًا في معرفتنا كشعوب غير بريطانية بشعوب الجزيرة الشهيرة.

تتركز أهمية شيرلوك هولمز عند أغلب قراء الأدب في العالم، في مقدرته الفائقة على رؤية أدق التفاصيل، وملاحظة أصغر الأمور، ببساطة شديدة، وبلا أي تعقيد، إنه ليس بطلاً خارقًا يرى خلف الأسوار أو يسمع دبيب النمل، أو يمتلك معدات تكنولوجية معقدة، بل إنه يفعل ذلك بحواس بشرية فقط، حواس دربها على العمل بهذا المنهج، وشذّبها حتى صارت حادة، قادرة على الإتيان بما لا يفعله سواه.

وهنا، تأتي عبقرية المبتكر، الرجل الذي يقف خلف هذه الشخصية الأسطورية، السير آرثر كونان دويل.

كان آرثر كونان دويل، المولود في بريطانيا في القرن التاسع عشر، يدرس الطب كما كان يحلم نصف سكان الجزيرة البريطانية،

إلا أنه أحب الأدب وقرأ وتبحر فيه، وعندما كتب روايته الأولى عن شخصية المحقق الأسطوري، تأثر بالغ التأثر بأستاذه في الجامعة، الذي كان يمتلك موهبة استثنائية في الاستنباط، وذلك عن طريق رؤية تفاصيل بسيطة وحقائق بديهية، وربطها بعضها ببعض؛ حتى يصل إلى استنتاج صحيح لا تشوبه شائبة.

ولد آرثر كونان دويل، عام ١٨٥٩ في أسكتلندا، وتخرج في كلية الطب بجامعة إدنبره، عام ١٨٨١، وقد عانى الأمرّين ـكما اعتدنا في بدايات كل المبدعينـ حتى استطاع أن يجد ناشرًا لروايته الأولى، وفي العام ١٨٨٦ اشترت دار نشر واردلوك وشركاه الحقوق كافة، في خطوة استباقية وصفها هو نفسه بالخطوة المجنونة، غير مأمونة العواقب، إلا أنه وبعد أن حققت الرواية نجاحًا باهرًا، وأصبحت سيرة الشخصية العظيمة على كل لسان، ألحق بها رواية ثانية، علامات الأربعة، في العام ١٨٩٠، ثم تواصلت أعماله التي تتناول شخصية شيرلوك هولمز، العشرات من القصص القصيرة والقصص الطويلة، عن الشخصية الأسطورية، مثل فضيحة في بوهيميا، وعصابة الرابطة الحمراء، وإبهام المهندس والعقيقة الزرقاء، ثم في أواخر العام ١٨٩٣، نشر آرثر كونان دويل قصته الشهيرة، المشكلة الأخيرة، والتي شهدت المواجهة الأخيرة لشيرلوك هولمز، مع عدوه الذكي النابغ، جيمس موريارتي، والتي شهدت مقتلهما معًا، تخيل أن أحد الكتاب قد يقتل شخصيته المفضلة التي صنعت شهرته، بعد سبعة أعوام فقط؛ لأنه ضاق بها ذرعًا، بعد أن حولته هذه الشخصية، إلى أعلى

الكتاب أجرًا في تاريخ بريطانيا، بل وواحد من أصغر من نالوا لقب السير على مر تاريخها، إلا أنه وتحت الضغط المتواصل، والهجوم الدائم عليه من قبل القراء، وبعد عشر سنوات كاملة، نشر روايته الثالثة التي أعاد فيها شيرلوك هولمز إلى الحياة، كلب باسكرفيل، والتي حطمت كل أرقام المبيعات في تاريخ الأدب، وعاد لكتابة القصص القصيرة عن شيرلوك هولمز، والتي بدأ يجمعها في مجموعات، مثل قصة الجاسوسية، القوس الأخير، واختفاء الليدي فرانسيس كارفاكس، ثم أصدر روايته الرابعة عن هولمز، وادي الخوف، وكان آخر ما كتبه هو مجموعة من القصص، جمعها في كتاب تحت عنوان كتاب قضايا شيرلوك هولمز، والذي نشر عام ١٩٢٧، أي قبل وفاة آرثر كونان دويل بثلاثة أعوام، ليبلغ مجموع الأعمال التي كُتبت عن شيرلوك هولمز ستين عملاً، في فترة أربعين عامًا تتخللها عشرة أعوام من القطيعة، وبيع منها ما يزيد على العشرين مليون نسخة، في زمن لم يكن النشر والطباعة فيه بسهولة عصرنا الحالي.

تنبع أهمية الرواية التي بين أيدينا، دراسة في القرمزي، من أنها هي العمل الأول الذي يشهد ظهور المحقق الأسطوري، العمل الذي لاقى نجاحًا كبيرًا للغاية، والذي تسبب في استمرار النجاح المتوالي والمستديم للشخصية، حتى وصلت إلى قارئ العربية مع منتصف القرن العشرين.

تخيل عزيزي القارئ، لو لم يكن هناك هذا الاستقبال الجماهيري والنقدي للرواية الأولى، تخيل لو أن الفشل كان حليف السير آرثر كونان دويل في عمله الأول، ببساطة لم نكن لنرى شيرلوك هولمز ثانية، ولابتلعه النسيان مع مئات الشخصيات المماثلة، التي لا يتذكرها أحدٌ من محبي الأدب عمومًا.

لذا، اخترنا هذا العمل ليكون الأول، من سلسلة ترجمات لأعمال أدبية مهمة، أثرت بشكل كبير في مسار الأدب العالمي المقروء، أعمال لم تترجم بصورة أدبية قبل اليوم، على الرغم من أهميتها الكبيرة، وتأثيرها العظيم في القارئ، في كل أنحاء العالم.

وقبل أن ننتقل إلى السطر الأول من الفصل الأول، لا يسعنا إلا أن نذكر مانشيت الصفحة الأولى، من جريدة التايمز، صبيحة أحد أيام ديسمبر من العام ١٨٩٣، وبعد أيام من نشر المجموعة القصصية التي أراد بها آرثر كونان دويل إغلاق صفحة شيرلوك هولمز نهائيًّا.

المانشيت الذي نقل تلك الشخصية، من خانة الخيال الأدبي، إلى خانة الرمز القومي:

«خبر حزين لكل الأمة.. مصرع شيرلوك هولمز!».

الـجزء الأول

(جزء من مذكرات الدكتور/ جون واتسون، الطبيب السابق بسلاح الأطباء البريطاني)

الفصل الأول

السيد/ شيرلوك هولمز

في عام ١٨٧٨ حصلت على درجة البكالوريوس، في دراسة الطب من جامعة لندن، واتجهت بعدها مباشرة إلى المستشفى العسكري في (نتلي) لأحصل على تدريب خاص، لكي أتمكن من الانضمام إلى الجيش كطبيب جراح.

وبعد اكتمال دراستي هناك، التحقت فورًا بكتيبة نورثمبرلاند الخامسة للمشاة، كجراح مساعد، والتي كانت ضمن الفوج المعسكر في الهند ـفي ذلك الوقتـ لكني قبل أن أتمكن من الانضمام إلى الفوج، اندلعت الحرب الأفغانية الثانية.

عند وصولي إلى (مومباي)، عرفت أن الفرقة التي أنتمي إليها قد تحركت فعلاً، وتوغلت في عمق صفوف العدو، ولكننا تبعناها على الرغم من ذلك، أنا والعديد من الضباط الذين مروا بظروف تشابه ظروفي، وتمكنّا أخيرًا من الوصول بسلام إلى (قندهار).

وبمجرد وصولي إلى هناك، وجدت أخيرًا كتيبتي، وبدأت فورًا ممارسة مهامي، المهام التي قد تكون جلبت الشرف والترقيات للعديدين، لكنها لم تجلب لي سوى المصائب والكوارث.

تم نقلي من اللواء الذي كنت أخدم فيه، وألحقت بكتيبة البركي شايرز الملكية، والتي خدمت فيها خلال المعركة القاتلة في (مجواند).

هناك أصبت برصاصة في كتفي، حطمت العظام وخدشت شريان الترقوة، وكنت على وشك الوقوع في الأسر، لولا شجاعة وتضحية موراي، الممرض الذي يعمل معي، الذي ألقاني بقوة فوق ظهر حصان نقل، ووصل بي بأمان إلى خطوط الجانب البريطاني. لأنقل بعدها وأنا رثُّ الثياب، منهكٌ مما تعرضت له على خط المعركة، في قطار كبير يحمل المصابين إلى مستشفى القاعدة العسكرية في (بيشاور).

هناك تحسنت كثيرًا، وبدأت أسترد عافيتي الغائبة، حتى إنني أصبحت قادرًا على المشي بين العنابر، والخروج إلى الشرفة. كان ذلك قبل أن أصاب بالحمى المعوية، المرض الذي ابتُلينا به من الممتلكات الهندية لبريطانيا العظمى.

يئست من حياتي، وفقدت الرغبة فيها لشهور عديدة، وعندما تعافيت قليلاً، وأصبحت على وشك إنهاء فترة النقاهة، كنت قد ضعفت وهزلت، فقررت الهيئة الطبية أنه لا بد من إرسالي فورًا إلى إنجلترا، وأن بقائي هنا لا بد ألّا يستمر يومًا آخر.

لذا فقد تم فورًا شحني في سفينة عسكرية لنقل الأفراد، رست بعد شهر كامل على رصيف بورتسموث، مدمَّر الصحة بشكل كامل، ولكن مع إذنٍ من الحكومة الأبوية الرحيمة، في قضاء الأشهر التسعة المقبلة في محاولة تحسينها.

لم يكن لي عائلة ولا أصدقاء في إنجلترا، كنت حرًّا طليقًا، حرًّا كما ينبغي لرجل يتكسب يوميًّا أحد عشر شلنًا وستة بنسات!

تحت ضغط هذه الظروف المتشابكة، جذبتني لندن إليها بشدة، البالوعة الكبيرة التي يصرف فيها كل متسكعي وعاطلي الإمبراطورية، فأقمت هناك في فندق ستراند، مكان غير مريح ومعيشة ليس لها هدف، خاصة وأنا أنفق المال بحرية وأريحية، حرية كانت أكثر مما يجب في الحقيقة.

لذا، عندما انطلق الإنذار داخلي، ينبهني إلى حالتي المادية التي بدأت في التدهور، سرعان ما أدركت أنني يجب أن أترك المدينة، وأذهب إلى مكان ما في الريف، أو أن أجري تغييرًا كاملاً في أسلوب حياتي، ولأني أحببت المدينة، فقد قررت أن الاختيار الثاني هو ما يناسبني، وبدأت أفكر في ترك الفندق، والبحث عن سكن في أماكن أقل كلفة، وأقل راحة بالطبع.

وفي اليوم نفسه الذي وصلت فيه إلى هذا الحل، كنت جالسًا في بار كريتيريون، عندما ربت أحدهم على كتفي، فأجفلت ملتفتًا لأجد الشاب ستامفورد، كان في الحقيقة ممرضًا يعمل معي في بارتس، وهو ما جعلني أبتهج قليلاً؛ إن وجهًا مألوفًا في غابة لندن الموحشة، لهو أمر لطيف بالطبع، خاصة لرجل وحيد مثلي.

في الأيام الخوالي، لم أكن أنا وستامفورد صديقين مقربين، لكنني في الحقيقة قابلته بحماس، كأنني أقابل صديقًا حميمًا، وهو بدوره بدا سعيدًا لرؤيتي، ومن شدة فرحتي لمقابلة وجهه المألوف، دعوته ليتناول الغداء معي، وبعد قليل كنا في عربة أجرة، تنقلنا إلى مطعم هولبورن.

«ماذا كنت تفعل بنفسك مؤخرًا يا واتسون؟ لقد صرت نحيفًا مثل لوح خشبي، وبني البشرة مثل حبة جوز»، سألني في دهشة عارمة، ونحن نخوض في شوارع لندن المزدحمة، داخل العربة.

في عجالة، منحته صورة سريعة عن مغامراتي، وحظي السيئ في السنين الأخيرة. صورة سريعة انتهيت منها بالكاد ونحن نصل إلى وجهتنا.

«أيها الشيطان البائس»، قالها متمّمًا قصتي عن حظي العاثر «وماذا تنوي أن تفعل؟».

«أبحث حاليًا عن مكان أقيم فيه»، أجبته في هدوء، «غرفة مريحة ونظيفة بسعر معقول».

«أمر عجيب»، قالها مرافقي الودود، «أنت الشخص الثاني الذي أسمع منه هذه الجملة في يوم واحد».

«ومن كان الأول إذًا؟» سألته بلا مبالاة.

«زميل يعمل معنا في معمل الكيمياء بالمستشفى، رجل كان يرثى حظه العاثر هذا الصباح؛ لأنه وجد شققًا كثيرة مريحة، وتصلح للمشاركة، ولكنها أكثر مما تستوعبه محفظته البائسة».

هنا بدأ الأمر يثير انتباهي حرفيًّا!

كنا قد وصلنا وجلسنا متقابلين على طاولة بسيطة، ووضعت أمامنا زجاجة نبيذ.

«إن كان يبحث عن شخص ليشاركه السكن والنفقات، فأنا هذا الشخص المناسب، كما أن وجود رفيق أفضل بكثير من العيش ككلب وحيد».

بينما يرفع الكأس إلى فمه في أثناء كلامي، راح ينظر إليّ نظرة غريبة من خلال الكأس، «أنت لا تعرف شيرلوك هولمز بعد»، قالها وهو يشرب من كأسه، «ربما لن تحبذ أن تكون رفيقًا دائمًا له في السكن».

«لماذا؟» سألته متعجبًا «ماذا يعيبه؟».

«لم أقل إن شيئًا يعيبه. هو غريب قليلاً في تصرفاته، لكنه متبحر في بعض فروع العلم، وكذلك هو رجل ذو سلوك قويم وأخلاق نبيلة».

جرعت من كأسي قائلاً: «خريج كلية طب حسبما أتوقع».

«لا» أجاب رفيقي الودود، «هو بارع جدًّا في علم التشريح، وخبير كيميائي من الدرجة الأولى. لم يتعلم ذلك من دراسة نظامية على حسب علمي، لكن أبحاثه غريبة ومتفردة في الوقت نفسه. كما أنه يتمتع بمعرفة قد تذهل أساتذة كبارًا وعلماء عظامًا».

بدأ الأمر يثير دهشتي قليلاً:

«هل فكرت في إحدى المرات أن تسأله عن غرضه من كل هذه المعرفة؟».

«هو ليس شخصًا سهل المراس كما تظن، وليس ماهرًا في التواصل مع غيره، لكنه أحيانًا قد يتغير، عندما تبدأ الأوهام في السيطرة عليه».

اهتمامي يأكل في خلايا عقلي بنهم!

«أود أن ألتقيه»، قلت. «إذا كان لي أن أعيش مع أحد، يفضل أن يكون رجلاً من ذوي الطباع الهادئة القويمة، أنا لست قويًّا بما فيه الكفاية لتحمل الكثير من الضجيج أو الإثارة، كان لدي ما يكفي في أفغانستان والآن أريد أن أنعم بحياة طبيعية» قلتها في هدوء.

«والآن.. كيف يمكن أن أقابل هذا الصديق؟».

«من المؤكد أنه الآن في المختبر» قال رفيقي الهادئ. «أحيانًا لا تطأ قدماه المكان لأسابيع، وأحيانًا يعمل هناك من الصباح حتى الليل، وإذا كنت فعلاً راغبًا في ذلك، ربما نذهب بعد الغداء لنقابله هناك».

«بالتأكيد»، أجبته في حماس.

ثم بدأنا نأكل ورحنا نثرثر في مواضيع أخرى، حتى انتهينا ثم بدأنا رحلتنا القصيرة إلى المستشفى.

ونحن في طريقنا إلى المستشفى، أعطاني ستامفورد بعض التفاصيل عن الرجل الذي قد يكون رفيق سكني المستقبلي.

قال: «لا يجب أن تلومني إذا لم تستطع التعامل معه، فأنا لا أعرف شيئًا أكثر مما قلته لك، ليس أكثر مما عرفته خلال لقائه في بعض الأحيان في المختبر، وقد اقترحت أنت هذا الحل بإرادتك؛ لذلك يجب ألّا تُحمّلني المسؤولية لاحقًا».

«إذا لم نتفق، فسيكون من السهل أن نفض هذه الشراكة لاحقًا، يبدو لي يا عزيزي ستامفورد أن لديك بعض الأسباب القوية التي تجعلك تود غسل يديك من هذه المسألة قبل بدايتها»، رحت أتفحص وجهه «هل مزاج صديقنا صعب لهذه الدرجة؟! لا توارب شفتيك عن التفاصيل، وتكلم بصراحة».

«ليس من السهل أن أعبر عن ذلك بشكل واضح»، أجاب ضاحكًا «هولمز عملي جدًّا بالنسبة إليّ، هو يقترب أحيانًا من ذوي الدم البارد»، ثم تابع والابتسامة تعلو وجهه «يمكنني أن أتخيله يعطي صديقًا له جرعة من القلويات لغرض علمي، وهذا ليس خبثًا منه، بل لأغراض بحثية صرفة، ربما فعل ذلك من أجل أن يقيس الآثار على نحو دقيق، بل ربما فعل ذلك بنفسه كي يصل إلى الحقيقة»، تابع وهو ينظر إلى الشارع «إن لديه شغفًا بلا حدود للمعرفة».

«وهذا شيء جيد» قلت معقبًا.

«أتفق معك، لكن عندما يصل الموضوع إلى ضرب الجثث بالعصي على طاولة التشريح، فمن المؤكد أن الشغف قد اتخذ مسارًا مختلفًا هنا».

«ضرب الجثث!».

«نعم، للتحقق من قوة الكدمات التي يمكن أن تنتج بعد الموت، رأيت ذلك بأم عيني».

«ومع ذلك تقول إنه لم يكن يومًا طالبًا في الطب؟».

«لا»، قالها هازًّا رأسه «الرب وحده فقط يعرف ما هي أهداف دراساته، ولكن نحن لم ولن نعرف، على العموم، سوف أترك لك تشكيل انطباعك الخاص عنه».

وما إن أنهى كلامه حتى نزلنا من العربة واتخذنا ممرًّا ضيقًا من خلال باب جانبي صغير، والذي ما إن تفتحه حتى تدخل إلى جناح من المستشفى الكبير، مكان مألوف لي وأحفظه جيدًا، بأرضياته وممراته، حتى إني لم أحتج إلى التوجيه ونحن نصعد الدرج المبني من حجر قاتم، ونمشي في ممر نوافذه كبيرة، حتى نصل إلى القوس الحجري في نهايته، والذي يقع أسفله باب كتب عليه (مختبر الكيمياء).

كانت غرفة هادئة، اصطفت وتناثرت بها زجاجات تعد فلا تحصى، فوق طاولات واسعة، جنبًا إلى جنب مع الأنابيب الملتوية، ومصابيح بنسن ذات اللهب الأزرق.

وداخل الغرفة، كان هناك شخص واحد فقط، يقف منحنيًا على طاولة بعيدة، وعلى صوت خطواتنا التفت إلينا وهو يتقافز على قدميه من فرط المتعة: «لقد وجدتها، وجدتها»، قالها وهو يهرع إلينا وفي يده قنينة اختبار، بها شيء ما. «لقد وجدت وسيطًا يترسب مع الهيموجلوبين فقط، ولا يترسب مع غيره».

لو كان قد اكتشف منجمًا من الذهب الخالص، لما كانت فرحته تساوي ما أراه الآن!

وكان هذا أول لقاء لي مع السيد/ شيرلوك هولمز.

«الدكتور واتسون، السيد شيرلوك هولمز» قال ستامفورد مقدِّمًا.

«كيف حالك؟» قال بهدوء، ويده تقتحم يدي مصافحة إياي بحرارة لا تسمح بها علاقتنا، «لقد كنت في أفغانستان، ألاحظ هذا».

«كيف بحق السماء تعلم ذلك؟» سألت في ذهول.

«لا تشغل بالك» قالها ضاحكًا، «السؤال الآن عن الهيموجلوبين»، ثم رفع القنينة أمام وجهي «لا شك أنك تعي أهمية اكتشافي هذا».

«شيء مثير للاهتمام، كيميائيًّا، ولا شك»، أجبت، «ولكن من الناحية العملية ربما...».

«بربك يا رجل، هذا أهم اكتشاف علمي في الطب الشرعي لسنوات، ألا ترى أنه يعطينا اختبارًا دقيقًا بلا أخطاء لبقع الدم؟ تعال هنا الآن، سأريك شيئًا»، ثم سحبني من كم المعطف، ووجّهني إلى الطاولة التي يعمل عليها. وقال: «دعونا أولاً نحصل على بعض الدماء الطازجة»، ثم غرس إبرة محقن في إصبعه، وسحب كمية قليلة من الدم، صبّها في ماصة كيميائية. «الآن، سأضيف هذه الكمية الصغيرة من الدم إلى لتر من الماء، نقطة من الدم إلى لتر من الماء، يمكنك أن تتصور أن الخليط الناتج، سيكون ذا مظهر بريء من الماء النقي، ونسبة الدم لا يمكن أن تكون أكثر من واحد في المليون. ليس لدي أي شك، مع ذلك، سنرى الآن هذا التفاعل المتميز».

وبينما هو يتحدث، أضاف الدم إلى الماء، وخلطه جيدًا، حتى وصل إلى صورة من الماء النقي لا تشوبه شائبة، وألقى في قنينة بضع بلورات بيضاء، ثم أضاف بعض قطرات من السائل الشفاف النقي، وما هي إلا لحظات حتى ترسبت المادة البنية الداكنة في قاع القنينة، الهيموجلوبين.

«هل ترى هذا؟» صرخ فرحًا، وصفق بيده مسرورًا كطفل حصل على لعبة جديدة!

«والآن ما رأيك في هذا؟» قالها باستمتاع كبير.

«جميل، جميل»، رددت في استحسان.

تابع في حماس: «كان اختبار جوياكوم غير مؤكد وغير عملي، ثم الفحص المجهري لجزيئات الدم، لكن هذا الأخير كان غير ذي قيمة، إذ كانت بقع الدم قديمة لبضع ساعات، لكن يبدو أن هذا الاختبار يعمل بكفاءة، سواء كانت بقع الدم قديمة أو حديثة، وإذا عُمم هذا الاختبار سابقًا، لكان المئات ممن يمرحون فوق الأرض الآن قد دفعوا ثمن جرائمهم منذ فترة طويلة».

«بالتأكيد»، غمغمت مؤمنًا على كلامه.

«القضايا الجنائية معتمدة باستمرار على نقطة وحيدة، رجل مشتبه به بلا دليل، تفحص ثيابه، فتجد بقعًا بنية داكنة لا تزول، هل هي بقع الدم، أم بقع الطين، أم الصدأ، أم الفاكهة، أم ما هي بحق الجحيم؟ هذا السؤال الذي حير العديد من الخبراء، ولماذا؟ لأنه لم تكن هناك اختبارات موثوق بها، والآن لدينا اختبار شيرلوك هولمز، ولن تكون هناك أي صعوبة بعد الآن».

عيناه تلمعان إلى حد ما كلما تكلم، بل وها هو يضع يده على صدره وينحني، كما لو أن بعض الحشد يصفق له في خياله!

«تستحق التهنئة»، قلت متفاجئًا كثيرًا بحماسه البالغ.

«في العام الماضي كانت قضية فون بيشوف في فرانكفورت، ربما كانت حُلَّت بالتأكيد لو كان هذا الاختبار قد ظهر للوجود. ثم كانت هناك قضية بناء برادفورد، ومولر سيئة السمعة، لوفيفر في مونبلييه، وشمشون من نيو أورليانز. بإمكاني أن أذكر دستة من القضايا التي كان من شأنها أن تكون محسومة الآن».

«يبدو أنك موسوعة للجرائم تمشي على قدمين»، قالها ستامفورد ضاحكًا. «ربما تود أن تنشئ صحيفة من هذه الأشياء، وتسميها أخبار الشرطة التاريخية».

«مثيرة للاهتمام وللقراءة كذلك»، رفع يده، فلاحظت أنه وضع قطعة من لاصق الجروح فوق إصبعه، التي وخزها منذ لحظات، وابتسم متابعًا: «لا بد أن أكون حذرًا؛ فأنا أتعامل مع السموم كثيرًا»، وهنا لاحظت الكثير من قطع اللاصق فوق يده، والعديد من البقع التي غيّر الحمض لونها!

«حسنًا، حان وقت العمل»، ثم جلس على مقعد مرتفع، ذي ثلاث أرجل، ودفع بقدمه واحدًا تجاهي، بينما يقول ستامفورد: «الدكتور واتسون يبحث عن سكن، وبما أنك ذكرت لي سابقًا أنك تبحث عمن يشاركك السكن بالمناصفة، فقد رأيت أنه لا مانع أن تتقابلا».

بدا شيرلوك هولمز سعيدًا بفكرة مشاركة السكن معي. وقال: «عيناي على شقة في شارع بيكر، قد تناسبنا جدًّا، أتمنى فقط ألّا تمانع رائحة التبغ القوي، هل آمل؟».

«أنا دائمًا أدخن كالسفن»، أجبته.

«ممتاز، أحيانًا أقوم ببعض التجارب الكيميائية، هل هذا يزعجك؟».

«نهائيًّا»، أجبت هازًّا رأسي يمينًا ويسارًا.

«حسنًا، ماذا هناك أيضًا من أوجه القصور في شخصيتي، حسنًا، أنا أقلب في القمامة أحيانًا، ولا يُفتح فمي لأيام، فقط عندما تجدني أفعل ذلك، لا تنعتني بقليل الذوق، فقط اسمح لي ببعض العزلة، وبعد قليل سأكون بخير، والآن ما الذي عليك أن تعترف به من عيوب؟ من الصحي لاثنين زميلي سكن أن يعترفا لبعضهما بأسوأ ما فيهما، قبل أن يتشاركا السكن معًا».

ضحكت من طريقته في الاستجواب، وقلت مجيبًا: «حسنًا، أحتفظ ببندقية قنص، ولا أحب الدخول في مناقشات صاخبة؛ لأن أعصابي غير ثابتة، وأنا كسول للغاية، ولدي مجموعة متنوعة من الرذائل، ولكن هذا ما أذكره حاليًا».

«هل عزف الكمان نوع من أنواع المناقشات الصاخبة بالنسبة إليك؟»، سأل وقد بدأ صبره ينفد.

«هذا يعتمد على العازف»، أجبت. «عزف الكمان الجيد، هو علاج رائع ولكن عزف الكمان السيئ...».

«هذا صحيح تمامًا»، قال مقاطعًا بضحكة مستعجلة سخيفة، «أعتقد أننا متفقان وأن كل شيء مرتب، يتبقى فقط أن تعجبك الشقة».

«متى نراها؟».

«قابلني هنا في الظهيرة غدًا، وسنذهب معًا ونُتم كل شيء»، أجاب.

«حسنًا، إذًا فهي الظهيرة» وصافحته مودعًا.

تركناه للعمل وسط كيماوياته من جديد، بينما تمشينا أنا وستامفورد نحو الفندق.

«بالمناسبة»، سألته فجأة، وتوقفت عن المشي ناظرًا نحوه: «كيف بحق الشيطان عرف أني كنت في أفغانستان؟».

ابتسم ستامفورد ابتسامة، حاول جعلها غامضة: «هذا هو سره الخاص، حاول الكثيرون معرفة الطريقة التي يعرف بها تلك الأشياء، ولكنه لا يخبر أحدًا أبدًا».

«غامض هو في الحقيقة»، فركت يدي مكملاً: «أيًّا كان، فأنا ممتن لك للجمع بيننا، فضولي يدفعني لدراسته جيدًا لفترة كافية، أنت تعرف جيدًا أنه لتفهم الإنسانية لا بد أن تفهم الإنسان».

«إذًا، فلتدرسه جيدًا»، قالها مشيرًا إليّ مودعًا قبل ياردات من الفندق، «سوف تجد كل شيء متعلقًا به معقدًا لدرجة ما، أراهنك أنه في النهاية سوف يعرف عنك أكثر مما تستطيع أن تعرف عنه، إلى اللقاء، بالتوفيق».

«أشكرك، وداعًا»، وتركته متمشيًا نحو الفندق باهتمام وفضول كبيرين، أفكر في زميلي الجديد.

الذي لم أعرفه بعد.

الفصل الثاني

علم الاستدلال

التقيت السيد/ شيرلوك هولمز في اليوم التالي، حيث قمنا بمعاينة الشقة في المبنى رقم (ب ٢٢١) في شارع بيكر، المكان الذي تحدث عنه يوم تقابلنا للمرة الأولى.

كانت تتألف من غرفتي نوم مريحتين، وغرفة جلوس كبيرة تهويتها جيدة، ومفروشة بأثاث بسيط، تضيئها نافذتان واسعتان؛ لذا ببساطة كانت صفقة ناجحة للغاية بالنسبة إلينا، وكانت مناسبة من كل الجوانب، ولذلك لم تأخذ الكثير من الوقت لإتمامها.

في ذلك المساء نقلت أشيائي من الفندق إلى الشقة، وفي الصباح التالي تبعني شيرلوك هولمز بعدة صناديق وحقيبة كبيرة، وظللنا لمدة يوم أو اثنين نعمل على تفريغ الأغراض وترتيبها، وعندما انتهينا، بدأنا تدريجيًّا في الاستقرار واستكشاف محيطنا الجديد.

لم يكن هولمز فعليًّا شخصًا يصعب العيش معه، كان هادئًا في تعاملاته، منتظم العادات حسن الطباع، وكان من النادر أن يبقى مستيقظًا لما بعد العاشرة مساء، يستيقظ مبكرًا، ويتناول إفطاره قبل حتى أن أفتح عيني، وأحيانًا يمضي يومه في المختبر الكيميائي، وأحيانًا في غرف التشريح بالمستشفى، وأحيانًا يمشي لمسافات طويلة، تقوده فيها قدماه إلى المناطق الفقيرة ومنخفضة المستوى في المدينة.

طاقته بلا حدود عندما يعمل، لكنه أحيانًا كان يمضي الأيام ممددًا ساقيه على الأريكة في غرفة الجلوس، صامتًا لا يحرك حتى عضلة من جسده، من الصباح إلى الليل، كنت في أثناء هذا ألاحظ النظرة الخاوية الحالمة في عينيه، ما جعلني أشك في أنه يتعاطى نوعًا من المخدر يجعله في هذه الحالة، رغم أن حياته المنتظمة النظيفة قد تتعارض مع هذه الفكرة!

وبمرور الأسابيع، بدأ فضولي واهتمامي بما وراء هذا الوجه يتزايد بالتدريج، هو شخص لافت للانتباه في الحقيقة، حتى ولو كان يعبر أمامك صدفة، طوله يتجاوز المتر والثمانين سنتيمترًا، مع بنيته النحيفة التي تجعلك تعتقد أنه أطول من ذلك، وعيناه حادتان يقظتان ـعدا تلك اللحظات القليلة التي تعودت عليهاـ تلمعان ببريق يجذب الانتباه، وتحتهما أنف حاد، رفيع، يذكرك بالصقور، وذقنه المدبب الذي يمنحه أرستقراطية وحزمًا، بينما يداه أغلب الوقت ملطختان ببقع الحبر، وبواقي المواد الكيماوية التي يلهو بها، لكنهما حساستان جدًّا، كما لاحظت عليه عندما يحمل بهما شيئًا ثمينًا، مثل زجاجات المواد الكيماوية.

قد يصفني قارئ هذه الكلمات بأنني راوٍ ميؤوس منه، عندما أعترف كم حفز هذا الرجل فضولي، وكيف كثيرًا ما سعيت إلى اختراق التحفظ الذي أظهره، على كل ما يختص بحياته.

لم يكن السيد شيرلوك هولمز يدرس الطب، وهذا ما يدعم وجهة نظر ستامفورد عنه، بل لم يظهر لي أنه درس من قبل في أي من فروع العلم - في إحدى المؤسسات أو الجامعات- دراسة تؤهله للحصول على درجة علمية، على الرغم من ذلك كانت اهتماماته ببعض الدراسات العلمية في فروع معينة واضحة بشدة، وقدرته على الملاحظة فاجأتني بشدة.

في الحقيقة، لا يمكنني تصور أن شخصًا ما قد يهتم بالتفاصيل الدقيقة والتوافه من الأمور، إذا لم يكن له غرض ما خلف هذا الاهتمام، نادرًا ما يلاحظ أحد هذا الكم من التفاصيل، وبهذه الدقة، إلا إذا كان هناك هدف ما وراء هذه الملاحظات.

وعلى الرغم من ذلك، كان جهله بأمور أخرى شديد الوضوح، مثل قوة علمه بالأمور التي تثير اهتمامه، خاصة في الأدب والسياسة والفلسفة، عندما ذكرت أمامه مرة اسم (توماس كاريل)، سألني والدهشة تكسو ملامحه: «من يكون هو، وماذا فعل في حياته؟»، وهذا ما جعل فكي يتدلى مندهشًا، لكني عندما اكتشفت جهله التام بنظريات كوبرنيكوس حول النظام الشمسي، وأنه لا يعرف ببساطة أن الأرض تدور حول الشمس، كما يعرف أي طالب في أي مدرسة في القرن التاسع عشر، اكتشفت الحقيقة الواضحة، إنه فقط لا يهتم!

«تبدو مندهشًا للغاية»، قالها والابتسامة تكسو وجهه، «والآن بما أني لا أعرف، ولا أهتم بهذه المعلومة، فعليّ أن أنساها فورًا».

«أن تنساها!» قلت مندهشًا ومصدومًا في الوقت ذاته.

«بالتأكيد»، قالها ببساطة كأنه يشرب جرعة ماء.

ثم قال مفسرًا: «أنا أعتقد أن مخ الإنسان ما هو إلا غرفة خاوية، وأن عليك أن تؤثثها بالمفروشات التي تختارها، الأحمق فقط من يجمع كل أنواع الأثاث التي يقابلها؛ لذا قد تصبح قطعة الأثاث الوحيدة المفيدة له ضائعة وسط هذا الزحام، أو في أحسن تقدير تصبح مخفيّة، وغير واضحة، لدرجة أنه يصبح غير قادر على استحضارها عندما يحتاج إليها، العامل الماهر هو من يأخذ معه إلى ذلك الطابق الأدوات الصحيحة التي يحتاج إليها، ولا بد أن يكون حذرًا في ذلك، وعليه أن يفهم أن الجدران الصلبة لن تكون يومًا لينة لتستوعب كل هذه الأشياء، عندما تضم أي شيء جديد إلى هذه الغرفة يا عزيزي، فإنك تخسر شيئًا آخر في المقابل؛ لذا فمن الضروري ألّا تملأ رأسك بحقائق فارغة قد تطرد منه الحقائق المفيدة».

«لكننا نتحدث عن النظام الشمسي»، قلتها معترضًا.

«وما فائدة ذلك لي بحق الشيطان»، قالها بنفاد صبر واضح، «أنت تقول إننا ندور حول الشمس، لو أصبحنا غدًا ندور نحو القمر، ما هو الاختلاف الذي يحدثه هذا عليّ أو على عملي؟ ببساطة لا شيء».

كنت على وشك أن أسأله عن هذا العمل، ولكن شيئًا في طريقته أظهر لي أن السؤال سيكون غير مرحب به على الإطلاق، ومع ذلك، فكرت في محادثتنا القصيرة، وحاولت أن ألخصها في رأسي،

لقد قال إنه لن يكتسب أي معرفة قد تؤثر في هدفه؛ لذلك كل المعرفة التي كان يمتلكها من شأنها أن تكون مفيدة له.

لقد أعددت في ذهني جميع النقاط المختلفة، التي أخبرني أنه على دراية استثنائية بها، حتى إنني أخذت قلمي الرصاص ورحت أكتبها، إلا أني لم أمنع نفسي من الابتسام عندما أكملت ما أدونه؛ كانت الورقة ممتلئة بالآتي:

شيرلوك هولمز وما يعرفه:

١- المعرفة بالأدب: صفر.

٢- المعرفة بالفلسفة: صفر.

٣- المعرفة بعلم الفلك: صفر.

٤- المعرفة بالسياسة: ضعيفة.

٥- المعرفة بالنبات: متغيرة، يعرف الكثير عن نبات البيلادونا، الأفيون، والسموم عمومًا. لا يعرف شيئًا عن رعاية الحدائق.

٦- المعرفة بالجيولوجيا: عملية، ولكن محدودة. يستطيع التمييز بين أنواع التربة المختلفة، وذلك بعدما شرح لي سبب البقع التي تلطخ بنطاله، بل إنه يعرف من أي جزء في لندن، أتت كل بقعة من الطين!

٧- المعرفة في الكيمياء: عميقة.

٨- علم التشريح: دقيقة، ولكن غير منهجية بالمرة، ليست معرفة أكاديمية بالمعنى المتعارف عليه.

٩- المعرفة في الأدب المثير: هائلة. ويبدو أنه يعرف كل تفاصيل أي رواية جريمة، أو رواية رعب، كتبت في القرن التاسع عشر.

١٠- يعزف الكمان بامتياز.

١١- هو لاعب رمح خبير، وملاكم ماهر، ومبارز بالسيف كذلك.

١٢- لديه معرفة عملية جيدة بالقانون الجنائي البريطاني.

ما إن انتهيت من قراءة قائمتي، حتى مزقتها وألقيت بها في نار المدفأة، لو أمكنني فقط أن أعرف ما يسعى خلفه هذا الرجل، وما علاقة كل هذه الأشياء بما يهدف إليه!

ربما سأتوقف عن البحث في أحد الأيام، من كثرة اليأس ليس إلا.

على ذكرى عزفه على الكمان، أحيانًا ما يعزف قطعًا موسيقية صعبة مفضلة لي، بناء على طلبي، لكن عندما أتركه وحيدًا مع الكمان، فقلّما ينتج عما يعزفه أي موسيقى معروفة أو مفهومة، بل

إني كثيرًا ما أجده جالسًا على كرسيه المريح، مغلقًا عينيه، وأصابعه تخدش أوتار الكمان بلا أي ترتيب!

أحيانًا ما يعزف مقطوعات حزينة مؤثرة، وأحيانًا ما يعزف مقطوعات مبهجة راقصة، ربما كان هذا ما يعبر عما يدور في رأسه من أفكار وقتما كان يعزف، بل إنه أحيانًا ما يقطع هذه المقطوعات الصغيرة، ويعزف شيئًا ممتازًا من مقطوعاتي المفضلة، فيمنعني من الثورة على ما يعزف.

خلال الأسبوع الأول لم نستقبل أي زوار، وكنت قد بدأت الوصول إلى حقيقة واضحة، وهي أن رفيقي كان رجلاً بلا أصدقاء، مثلي تمامًا، على الأقل في الوقت الحاضر، ومع ذلك، وجدت أن لديه العديد من المعارف من فئات مختلفة من المجتمع، في إحدى المرات زارنا شخص قصير القامة، صغير الملامح، وعرف نفسه لي بالسيد لستراد، والذي زارنا ثلاث أو أربع مرات في أسبوع واحد.

في أحد الأيام زارتنا فتاة متأنقة، وبقيت لمدة نصف ساعة معه ثم رحلت، وعند الظهيرة زارنا رجل رمادي الشعر، يبدو كيهودي متحمس، وتبعته في الزيارة سيدة عجوز في أواخر عمرها.

في مناسبة أخرى، قابل رجلاً مسنًّا أبيض الشعر، لفترة طويلة، ثم قابل بعدها حمالاً من السكك الحديدية، يرتدي زي العمل المخملي.

عندما كنا نستقبل أيًّا من هؤلاء الزوار المتنوعين، كان هولمز عادة ما يطلب الانفراد بهم في غرفة الجلوس، عندها كنت أنزوي في غرفة نومي بمفردي.

كان يعتذر دائمًا مني عن هذا الإزعاج، وقال لي في إحدى المرات: «عليّ أن أستخدم هذه الغرفة كمكان لمقابلات العمل، هؤلاء الناس هم زبائني»، مرة أخرى أتيحت لي الفرصة لطرح السؤال عليه، ومرة أخرى منعتني أخلاقي من إجباره على أن يثق بي، تخيلت في ذلك الوقت، أن لديه أسبابه كي لا يفسر لي، لكنه سرعان ما بدد كل هذا، عندما أتى إليّ من تلقاء نفسه لاحقًا.

كان هذا في الرابع من مارس، وهو تاريخ لا بد أن أتذكره في الحقيقة، ففي هذا اليوم استيقظت مبكرًا على غير عادتي، وخرجت من الغرفة لأجد شيرلوك لم ينهِ إفطاره بعد، وقهوته كما هي، وصاحبة المنزل السيدة هادسون تواصل تقريعي على عاداتي السيئة، الاستيقاظ متأخرًا، وأنني لم أتناول إفطاري بعد، فأخبرتها بكل قلة ذوق وانعدام للأدب، أنني جاهز لشرب قهوتي الآن، وجلست على المقعد المقابل لهولمز، ممسكًا بالمجلة التي وجدتها هناك، لأضيع بعض الوقت حتى تأتي القهوة، عندما لاحظت عنوانًا تحيطه علامة بقلم رصاص.

كان عنوانًا رومانسيًّا (كتاب الحياة)، ويتحدث فيه الكاتب عن كيف من الممكن أن يعرف الشخص منا كل شيء في حياته، عن طريق ملاحظته لكل ما يمر به، بدقة واهتمام بالتفاصيل. شعرت بخليط من الدهاء والعبث هنا، كانت الاستنتاجات محكمة وكثيفة كالزيت، ولكنها بدت لي صعبة وغير مقنعة، كان يتحدث عن أهمية أي اختلاجة في العضلات، أو رمشة عين، أو حركة إصبع، في معرفة ما يفكر فيه الشخص، وأنه من الصعب أن يخدع المرء واحدًا من المدربين على الاستنتاج والتحليل، بل إن استنتاجاته كانت شبه مكتملة، كقوانين إقليدس، وهو ما جعلني مندهشًا،

فحتى يصل أحد إلى هذه المعرفة سوف ينظرون إلى ذلك المستنتِج على أنه محضر أرواح بارع، فقط لا غير!

«من قطرة ماء»، كتب ذلك الكاتب: «يمكن لأي رجل منطقي أن يعرف إذا كانت من الأطلنطي أو من نياجرا، دون أن يكون قد زار أيًا منهما، الحياة سلسلة كبيرة من الحلقات، ويمكن ببساطة أن نعرف كل شيء من حلقة واحدة، مثل أي علم أو فن، فإن علم الاستدلال يحتاج إلى وقت وصبر، كي تلم به، على الرغم من أنه لا يمكن لأحد أن يجمع كل فروعه ومعرفته الكاملة في حياته، مهما كانت طويلة، وقبل الخوض في تفاصيل وتحولات المادة والمعادن المختلفة، وهي ما تمثل أكبر صعوبة قد تواجه المستدِل، دعه يتمرن أولاً في بعض التجارب البسيطة، كأن يقابل أشخاصًا مثله، ويحاول استنباط سماتهم الشخصية، وطبيعة أعمالهم، وكيف يتصرفون في المواقف المختلفة، الملاحظات الصبيانية مثلاً، هي تدريب مهم على استنتاج ذلك. من ملاحظة الأظفار، من ياقة المعطف، من العلامات على مكان الركبتين في البنطال، من نوع ونظافة الحذاء، من تعبيرات الوجه وكمَّي القميص، وحتى من الزوائد الجلدية في أصابع اليد. كل هذه الأشياء مجتمعة تكشف لك ببساطة عن طبيعة الإنسان الذي يجلس أمامك، فلا يوجد أحد يمكنه بشكل كامل أن يضلل المحقق الذي يستخدم علم الاستدلال».

«ما هذا الهراء»، قلتها وأنا ألقي المجلة على الطاولة، «لم أقرأ في حياتي شيئًا عديم القيمة مثل هذه القمامة».

«ماذا تعني؟»، سأل هولمز.

قلت وأنا أشير إلى المجلة بطرف الملعقة التي قلبت بها لتوي قهوتي: «لماذا أشرت بالقلم الرصاص إلى هذه المقالة بالذات؟».

ثم أكملت متابعًا: «أرى أنك قرأتها، لأنك وضعت عليها علامة، لا أنكر أنها مكتوبة بذكاء، ولكنها على الرغم من ذلك تزعجني، إنها أشبه بنظريات العاطلين، أصحاب المقاعد الوثيرة، الذين يذكرون كل هذه النظريات المنمقة في بحثهم المنعزل عن أرض الواقع، لكنها ليست نظريات عملية ولا واقعية، أود أن أراه عالقًا في عربة درجة ثالثة في قطار الأنفاق، وسأطلب منه أن يحدد لي وظائف كل المسافرين معه في العربة، وسأراهنه بألف جنيه مقابل جنيه منه».

«سوف تخسر مالك إذًا»، قالها شيرلوك ببساطة. «أنا من كتبت هذه المقالة».

«أنت!»، قلت مندهشًا.

«لدي الكثير من المعرفة بعلم الاستدلال والاستنتاج، والنظريات التي ذكرتها والتي تبدو لك خيالية، هي أشياء عملية جدًّا، عملية لدرجة أني أعتمد عليها في ابتياع الخبز».

«وكيف تفعل ذلك؟»، نطقتها لا إراديًّا.

«حسنًا، دعني أخبرك، إن لدي مهنة خاصة بي، وأفترض أنني الوحيد في العالم الذي يشغل هذه المهنة، أنا محقق استشاري، إذا كنت تستطيع أن تفهم ما هو المحقق الاستشاري، هنا في لندن لدينا

الكثير من المحققين الحكوميين، والكثير من المحققين في القطاع الخاص، عندما تتعقد الأمور مع هؤلاء الزملاء، يأتون إليّ، وساعتها أتمكن من شم رائحة الحقيقة بوضوح، فقط إذا وضعوا أمامي كل الأدلة، لأشمها مثل كلب مخلص، وأتمكن عادة بسبب معرفتي اللا محدودة ومنطقي السليم من حلها، وكذلك من خلال معرفتي بتاريخ الجريمة على مر الأزمنة. إن الأفعال الإجرامية عادة ما تتشابه يا عزيزي واتسون، وإذا كانت لديك ألف طريقة لارتكاب جريمة، فليس من الصعب عليك أن تعرف رقم واحد ورقم ألف. لستراد محقق معروف في سكوتلاند يارد، وهو عالق في قضية تزوير غامضة نوعًا، وهو ما جاء به إلى هنا لاستشارتي».

«والزوار الآخرون؟».

«معظمهم يتم إرسالهم من قبل وكالات التحقيق الخاصة، وهم جميعًا في ورطة ما، ويبحثون عن قليل من التنوير، وأنا أستمع إلى قصصهم، ويستمعون إلى تعليقاتي عليها، ثم أحصل على مصروف جيبي»، قالها مبتسمًا كطفل صغير.

«إذًا فأنت تقصد»، ثم صمتُّ، وقلت مستجمعًا أفكاري: «إنك من دون أن تغادر غرفتك هذه، تستطيع أن تفك بعض العقد التي استعصت على رجال آخرين، على الرغم من أنهم رأوا كل التفاصيل بأم أعينهم».

«نوعًا ما»، قالها في بساطة. «أمتلك حدسًا، قليلاً ما يجانبه التوفيق، قضايا عديدة قديمة أو حديثة تم كشف غموضها لأني استخدمت القواعد التي قرأتها في تلك المقالة -التي أثارت سخطك- والتي لا تُقدر بثمن بالنسبة إليّ، في الحقيقة، إن الملاحظة طبيعة بشرية مثل التنفس، على سبيل المثال، كانت الدهشة تلتهم قسماتك عندما قلت لك، إنك قدمت لتوك من أفغانستان».

«لقد أخبرك أحدهم بكل تأكيد»، قلتها ببساطة.

«أبدًا، لم يحدث هذا، في الحقيقة عندما رأيتك للوهلة الأولى، ومن كثرة تعودي على الاستدلال، توالت الأفكار في رأسي كعربات القطار، ومن دون حتى أن أستخدم أي وسيلة إضافية للتدقيق. نعم، هناك وسائل أكثر عمقًا وتطورًا، ولكن...»، شرد للحظة ثم أكمل: «كنت أقول إن الحقائق توالت في رأسي تباعًا، هذا رجل يمتهن الطب، ولكنه يعمل في الجيش، كيف عرفت ذلك؟ لأنك صديق لستامفورد، وهو محدود الأصدقاء من خارج دائرة عمله في الجيش، فقلت لنفسي، ربما كان ضابطًا طبيبًا، وقد جاء لتوه من أحراش ما، بالنظر إلى لون وجهه، الذي يخالف لون باقي جلده، وقد مر بظروف صحية سيئة مؤخرًا كما يقول وجهه الشاحب هذا، كما أنه أصيب في ذراعه اليسرى؛ لأنه يحركها بطريقة غير طبيعية، وفيها القليل من الحدة، أين يمكن أن يكون طبيب في الجيش قد أصيب في معركة دارت في مناطق استوائية أو بها أحراش، ببساطة لا يوجد سوى أفغانستان»، ثم قال متابعًا بلا مبالاة: «وصل القطار إلى المحطة في ثانية واحدة، قلت لك إنك جئت من أفغانستان، وكنت أنت مندهشًا، وهذه هي القصة».

«تبدو بسيطة كما فسرتها»، قلت مبتسمًا، «أنت تذكرني بـ(دوبين) لـ(إدجار آلان بو)، في الحقيقة لم تكن لدي أي فكرة عن وجود مثل هؤلاء الأشخاص خارج القصص».

«لا شك أنك تعتقد أنه من الإطراء علي تشبيهي بـ(دوبين)»، ثم نهض وأشعل غليونه متابعًا: «كان دوبين من نوع المحققين ذوي المستوى الأدنى في الحقيقة، يمارس ألاعيب نفسية، ويتحدث بكامل الحقيقة بعد ربع ساعة من الصمت والاستماع، وأسلوبه الاستعراضي كان في غاية السطحية والابتذال، لا شك أنه كان عبقريًّا في الاستدلال والبحث، لكنه لم يكن ظاهرة في مجاله كما حاول بو أن يصوره».

«هل قرأت أعمال جابوريا؟ هل تعتقد أن المسيو ليكوك يمكن أن يقنعك كمحقق؟».

نفث شيرلوك الدخان بكثافة: «ليكوك كان أخرق بائسًا»، ثم تابع غاضبًا: «لم يكن لديه شيء واحد يميزه، سوى طاقته وقوته البدنية، لقد جعلتني الرواية أشعر بالغثيان منه، تخيل أنه احتاج إلى ستة أشهر لكي يتعرف سجينًا مجهولاً، بينما كان الأمر سيتطلب مني أربعًا وعشرين ساعة فقط، أعتقد أن هذه الرواية طبعت في كتاب كي يتعلم منه المحققون ما عليهم ألّا يفعلوه».

شعرت بسخط شديد من طريقته في الكلام عن شخصيتين كنت أحب أخلاق الفرسان فيهما، «هذا الرجل ذكي جدًّا، ولكنه في الحقيقة مغرور جدًّا جدًّا».

هكذا قلت لنفسي، وأنا أنظر من النافذة إلى الشارع المزدحم.

قال شيرلوك: «لا توجد جرائم ولا مجرمون في هذه الأيام، ما هو النفع من وجود عقل مثل عقلي؟ أنا أعلم أن لدي عقلاً لا حدود له، وأنني يمكن أن أخلد اسمي في تاريخ هذه المهنة، لم يأتِ على هذه المهنة من له موهبتي الطبيعية، ولا استطاع أحد أن يضيف إلى الاستدلال والاستنتاج مثلما فعلت، ولكن ما نفع هذا ولا توجد لدينا جرائم؟ لا يوجد سوى القليل من الجرائم المائعة ذات الدوافع البسيطة، دوافع يمكن حتى لضابط في سكوتلاند يارد أن يعرفها ويتوقعها»، أتم جملته ساخرًا، وهو ينطق سكوتلاند يارد في ازدراء.

كنت ما زلت منزعجًا من أسلوبه المبتذل. اعتقدت أنه من الأفضل تغيير موضوع هذه المحادثة فورًا.

«عن ماذا يبحث هذا الرجل؟»، قلتها وأنا أشير بيدي عبر النافذة إلى رجل قوي البنية، يرتدي ثيابًا بسيطة، ويمشي على الرصيف المقابل مراقبًا الأرقام على البنايات، يحمل تحت إبطه مظروفًا أزرق كبيرًا، يبدو كأنه رسالة يوصلها إلى شخص ما.

«هل تقصد العريف المتقاعد من قوات البحرية؟»، قالها شيرلوك وهو ينظر بطرف عينه عبر النافذة.

«التباهي والاستعراضية من جديد»، همست بها لنفسي. «هو يعرف أنني لن أستطيع التأكد من صحة تخمينه».

عبرت الخاطرة المزعجة في رأسي، بينما يعبر ذلك الرجل الشارع نحو باب البناية التي نسكن فيها بالتحديد، ثم سمعنا قرعًا مدويًا على البوابة، تبعته خطوات ثقيلة فوق السلم الخشبي، فقط لنجد هذا الرجل أمامنا، يناول شيرلوك هذا المظروف الأزرق.

«السيد شيرلوك هولمز؟»، قالها متسائلاً.

كان منتصب القامة، بينما يتناول شيرلوك منه الرسالة، تقدمت خطوة منه وأنا أعتقد أن الفرصة سانحة لكي أسأله

«هل تسمح لي؟ ما هي وظيفة السيد المحترم؟».

«أنا حارس بناية نظامي سيدي، والزي الرسمي عند الخياط لأجل الإصلاح».

نظرت بطرف عيني نحو شيرلوك الذي يفض الرسالة، ونظرة الانتصار تنبت في مقلتي.

«وأين كنت تعمل سابقًا؟».

«عريف في فرقة البحرية الملكية سيدي، هل من رد على الرسالة سيد هولمز؟»، «لا، حسنًا، أشكرك».

ثم ضرب كعبيه في بعضهما، كأنه يستأذن في الانصراف، ورفع يده أمام جبهته بتحية عسكرية واستدار منصرفًا.

بينما الشيطان العبقري ما زال يقرأ الرسالة!

الفصل الثالث

لغز حدائق لوريستون

نعم أعترف.

أعترف بأنني كنت متفاجئًا من ذلك البرهان العملي على نظريات رفيقي السيد هولمز، وهو ما زاد احترامي لقدرته اللا محدودة على التحليل، ورغم القليل من الشك المتبقي في عقلي، فإن ما حدث الآن ما هو إلا مجرد قصة مزيفة، تم إعدادها سابقًا لإثارة دهشتي وإعجابي!

لذا، عندما نظرت إليه مندهشًا، كان قد انتهى لتوه من قراءة الرسالة، ونظرة خاوية تحتل عينيه، نظرة خالية من أي معنى.

«هل يمكنك أن تخبرني كيف استنتجت ذلك؟»، سألته مندهشًا.

«استنتجت ماذا؟»، سألني بهدوء.

«أن هذا الرجل الذي انصرف منذ قليل، عريف متقاعد من البحرية؟».

«لا وقت لدي لهذه التفاهات»، أجابني باقتضاب، ثم تغيرت تعبيرات وجهه فجأة إلى ابتسامة عريضة مكملاً: «اعذر قلة ذوقي، ولكنك قطعت تسلسل أفكاري، حسنًا، تريد أن تقول إنك لم تستطع تمييز ذلك؟ لم تستطع أن تميز أن هذا الرجل عريف متقاعد؟».

«بالطبع لا».

«إن تمييز هذا، أسهل من أن تسألني كيف استنتجته، إذا سألك أحدهم أن تثبت أن حاصل جمع الرقم اثنين مع نفسه هو أربعة، فسوف تجد بعض الصعوبة في إثبات ذلك، على الرغم من أنك متأكد من أن هذا لا يقبل النقاش، ببساطة كان يمكنك تمييز ذلك الوشم على شكل مرساة فوق ظهر كفه، تغيير لون جلده وبشرته من اختلاط ملح البحر بأشعة الشمس، كذلك سوالفه القصيرة المنمقة، إذًا نحن أمام رجل كان يعمل في البحرية، مشيته المنتصبة والنظرة الحازمة في وجهه، تثبت أنه كان يعطي الأوامر غالبًا ولا يتلقاها، رجل متزن في منتصف العمر، ويبدو عليه الاحترام، إذًا رتبته تقع بين العريف والملازم، ببساطة يا عزيزي، لقد وجدت كل الحقائق التي تحتاجها بنظرة واحدة إليه».

«رائع»، صحت في إعجاب شديد.

«هذا أمر عادي في الحقيقة»، قالها وعلى وجهه تعبير يوحي بأنه سعيد بمديحي له، وإن كان يُبدي تجاهلاً حيال هذا.

«لقد قلت لك منذ قليل، إنه لا توجد جرائم تستحق استخدام مهاراتي، في الحقيقة لقد كنت مخطئًا»، قالها وهو يلقي إليّ بالرسالة، التي سلمها إليه ذلك الرجل منذ قليل، «هذا يبدو غير معتاد وقليل المنطقية بعض الشيء، من فضلك اقرأها بصوت مرتفع»، قالها موليًا ظهره لي.

فتحت الرسالة وبدأت قراءتها بصوت مرتفع:

عزيزي شيرلوك هولمز،

حادثة سيئة للغاية، حدثت عند المنزل رقم ٣ في حدائق لوريستون، من طريق بريكستون، رجل الحراسة شاهد نورًا يسطع من منزل مغلق، في الثانية صباحًا؛ لذا فقد اشتبه في ذلك، وصعد مباشرة إلى ذلك المنزل، وفي الحجرة الأمامية وجد جثة رجل حسن الثياب، توجد في جيب سترته بطاقة تعريفية باسم (إينوخ ج. دربر)، من أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية، لم تكن هناك آثار سرقة، ولا أي آثار قد تدلنا على طريقة الوفاة، هناك بقع دم على الأرضية، لكن بلا جروح في جسد ذلك الشخص!

نحن في حالة ضياع تام، لا نعرف كيف دخل هذا الرجل إلى المنزل الخالي، وهو ليس من سكانه، وكيف نزف دماء بغير جرح؟ إذا تكرمت علينا بالحضور قبل الساعة الثانية عشرة ظهرًا، فسوف تجدني هناك، وإن لم تنوِ الحضور، أرجو الرد على رسالتي، كي أرسل إليك تفاصيل أكثر، من المهم لدينا أن نعرف رأيك في كل ذلك.

ملحوظة: لقد تركت كل شيء على وضعه، حتى أستطلع أمر قدومك.

المخلص

توبياس جريجسون

«جريجسون من أذكى محققي سكوتلاند يارد»، قال شيرلوك متابعًا: «هو ولستراد في الحقيقة أتيا من الشحنة الفاسدة نفسها التي جلبوها مؤخرًا إلى هذه المؤسسة»، بابتسامة ساخرة أكمل: «في الحقيقة هما نشيطان للغاية، ويعملان بسرعة، ولكنهما للأسف لا يطيق أحدهما الآخر».

«غيرة وظيفية؟»، سألت بهدوء.

«الاثنان يغاران من بعضهما كأي مراهقتين في مدرسة ثانوية»، قال شيرلوك متابعًا: «سيكون من الممتع رؤيتهما يعملان معًا في هذه القضية».

في الحقيقة، كنت مندهشًا من طريقته الهادئة الساخرة بعد هذه الرسالة.

«هل أذهب وأطلب لك عربة أجرة؟ ليس لديك وقت لتضيعه على ما يبدو».

«لست متأكدًا إذا كان عليّ الذهاب أم لا، أعتبر نفسي أكثر شيطان كسول عرفته الدنيا، عندما يناسبني الأمر ربما أتحرك من مكاني قليلاً».

«ولماذا لا يناسبك الأمر، إنها الفرصة التي كنت تنتظرها منذ فترة»، قلت مستغربًا.

«صديقي العزيز، ما أهمية هذا الأمر بالنسبة إليّ؟ فلنفترض أنني حللت المشكلة بالكامل، سوف تذهب كل المميزات إلى السيد لستراد ورفاقه، أنا شخص غير رسمي في نهاية الأمر».

«لكن الرجل رجاك أن تساعده».

«نعم، هو يعلم أنني الأفضل، ولكنه سوف يقطع لسانه قبل أن يقول ذلك على الملأ، قبل أن يقول إن أحدهم قد حل المشكلة من خارج سكوتلاند يارد. وعلى الرغم من ذلك، ربما نذهب لنلقي نظرة، ربما تمكنت من السخرية منهما، إذا لم يستطيعا الإتيان بشيء مفيد».

ثم غطى كتفه بالمعطف، واتجه بنشاط إلى باب الشقة.

«أحضر قبعتك وهيا بنا».

«هل تريدني معك في ذلك؟».

«نعم، إذا لم يكن لديك أمر أهم لتقوم به».

وبعد دقائق، كنا داخل عربة تتحرك بسرعة على طريق بريكستون.

نهار غائم مليء بالضباب، ووشاح تغير لونه معلق فوق بروز سطح أحد المنازل، يبدو كانعكاس الشوارع الموحلة أسفل أقدامنا، بينما رفيقي العزيز في روح معنوية عالية، يثرثر عن كمان سيرمونيا، والفرق بين عزف أماتي وستراديفاريوس. أما أنا فكنت صامتًا مثل الجو الغائم القاتم، شاعرًا بالضيق، أفكر في ذلك العمل الذي ربطت نفسي به منذ قليل.

«يبدو أنك لا تعير الأمر الكثير من الاهتمام»، قلتها أخيرًا مقاطعًا خطبة هولمز الموسيقية!

«لا توجد معلومات حتى الآن»، أجابني ببساطة، «إعطاء أحكام ونظريات والتفكير فيها قبل رؤية الأدلة، هي غلطة لا أقع فيها».

«سوف تحصل على معلوماتك قريبًا»، قلتها وأنا أشير نحو نهاية الطريق، «هذا هو تقاطع بريكستون وذاك هو المنزل، إذا لم تخني ذاكرتي».

«نعم، هذا هو»، ثم قال صائحًا: «قف أيها السائق، قف هنا».

كنا على بعد مئة ياردة تقريبًا من المنزل، لكنه أصر على أن يوقف السائق العربة، وأن ننزل هنا، ونكمل المسافة المتبقية سيرًا على الأقدام.

المنزل رقم ٣، حدائق لوريستون، يبدو كأنه منزل مسكون أو ملعون. وهو واحد من أربعة منازل، تبعد بضع ياردات عن الطريق الرئيسي، اثنان منها كانا معمورين بالبشر -أو هكذا يبدوان- واثنان مهجوران تمامًا، الثاني منهما كان كئيب المنظر، له ثلاث نوافذ معتمة، وفوق إحداها لوحة (للبيع)، بدت كأنها مياه بيضاء تكسو عينًا مريضة، وله حديقة صغيرة مزروعة بنباتات مختلفة غير مشذبة، تفصل المنزل وغيره من المنازل عن الطريق، ومدخل ضيق بين هذه النباتات نحو المنزل نفسه مكسو بالحجر والطين، وزلق بفعل الأمطار -التي تساقطت ليلة أمس- وكل هذا محاط بسور من الطوب بارتفاع ثلاث أقدام، وفوقه إطار خشبي، وأمام هذا السور يقف ضابط شرطة محاطًا بمجموعة من المتسكعين، يحاولون إلقاء نظرة علّهم يلمحون شيئًا مما يحدث بالداخل.

كنت أتخيل أن شيرلوك سوف يهرع إلى المنزل، ويبدأ العمل على الفور لفك غموض هذه الجريمة، لكن شيئًا من هذا لم يحدث في الحقيقة، بمنتهى الهدوء والسكينة، صعد ذلك الرصيف

الصغير من الطريق، وراح ينظر بخواء شديد نحو الأرض، ونحو السماء، ونحو المنازل المقابلة والإطار الخشبي فوق السور، وبعد أن انتهى من التحديق إلى كل ذلك، مشى ببطء ناحية الممر، وهو يدوس الحشائش، وعيناه مثبتتان على الممر الحجري، توقف مرتين وهو يحدق إلى شيء ما، ابتسم في إحداهما، ولمعت عيناه وهو يثني على نفسه.

كان هناك العديد من آثار الأقدام المختلفة على الجزء الطيني من الممر الصغير، لكن حركة أفراد الشرطة فوقها طمستها تقريبًا، يبدو أنه سيتعذر على هولمز أن يكتشف شيئًا منها، على الرغم من أنني واثق تمام الثقة بأنه سوف يرى أشياء لا أستطيع أن أراها، وأنه سيكتشف أشياء لا يمكننا ملاحظتها.

على باب المنزل، قابلنا رجلاً طويلاً أبيض البشرة، أشقر الشعر، يحمل في يده مفكرة صغيرة، هرول باتجاهنا وصافح هولمز رغمًا عنه، «إنه من الجيد أنك أخيرًا هنا»، قال الرجل. «لقد حافظت على كل شيء نظيفًا ولم يلمسه أحد».

«عدا هذا»، أشار هولمز بطرف إصبعه ناحية أرضية الممر، «لو أن قطيعًا من الثيران الجامحة مر من هنا، لم يكن ليتسبب في فوضى أكبر من هذه»، قالها هولمز ساخرًا. «أعتقد أنك قد وصلت إلى استنتاج بلا شك أيها المفتش، بما أنك سمحت بهذه الفوضى».

«كان لدي الكثير لأفعله داخل المبنى»، قال المفتش في هدوء. «زميلي السيد لستراد يفترض أن يكون هنا، وقد اعتمدت عليه في أن ينظم كل شيء خارج المنزل».

نظر هولمز إليّ بطرف عينه مبتسمًا، ثم رفع قبعته قليلاً متابعًا: «في وجود رجلين مثلكما هنا، لن يكون هناك الكثير ليكتشفه أي أحد».

أشار المفتش جريجسون بيده امتنانًا، وقال: «أعتقد أننا فعلنا كل ما يجب أن يفعل، إنها قضية في غاية الغرابة، وأعتقد أنك تمتلك ما تفيدنا به».

ثم التفت نحوه متابعًا: «ألم تأتِ إلى هنا في عربة أجرة؟».

«لا يا سيدي».

«ولم ترَ لستراد؟»، قالها وهو يفتش بعينيه فيما حوله.

«لا يا سيدي».

«حسنًا، دعنا إذًا ندخل إلى تلك الغرفة»، ثم تحرك نحو المنزل ونحن نتبعه، وعلامات الدهشة ما زالت تعلو ملامحه.

قادنا إلى الداخل عبر ممر صغير متكسر الأخشاب، يغطيه التراب، يوصلنا بالمطبخ وغرف المكتب، حيث وجدنا بابين مفتوحين أحدهما ناحية اليمين، والآخر ناحية اليسار. أحد البابين تظهر عليه علامات تشي بأنه لم يفتح منذ أسابيع، والآخر يبدو كأنه باب غرفة طعام صغيرة.

دخل هولمز إلى الغرفة في هدوء وأنا أتبعه، وشعور غريب يغزو قلبي، شعور أن الموت كان هنا منذ لحظات.

غرفة مربعة كبيرة، تبدو أكبر حجمًا بلا أثاث كما رأيناها. تغطي حوائطها أوراق الحائط التي تملأها بقع الغبار والقِدَم، وبعض شرائح متساقطة في عدة مواضع، تظهر اللون الأصفر الشاحب الذي طليت به الحوائط. وأمام الباب مباشرة مدفأة باهرة، تعلوها قطعة من الرخام الأبيض التقليدي، والتي تستند على عمودين من الرخام، أحدهما لوثت بياضه بقايا من شمع أحمر.

كانت النافذة الوحيدة في الغرفة قذرة جدًّا حتى إن الضوء النافذ منها كان ضبابيًّا شاحبًا. ما يعطي مسحة رمادية مملة لكل شيء، المسحة التي تم تكثيفها بكل ذلك الغبار الكثيف، الذي يغطي كل شيء.

إلا أن تركيزي الأساسي كان على الجثة الراقدة بلا حراك، رجل متمدد فوق ألواح الأرضية، وهذه النظرة الخاوية التي تطل من عينيه محدقة إلى السقف المملوء بطبقات من الغبار، في أواسط أربعيناته، متوسط البنية، عريض الكتفين، شعره أسود خشن وله لحية غير مهذبة، يرتدي معطفًا ثقيلاً وبنطالاً فاتح اللون، وأسفل هذا المعطف قميص ذو كُمّين وياقة، وبجواره قبعة فاخرة توحي بثراء عظيم.

بينما بجواره يجثو على ركبتيه رجل شرطة نظامي كما عرفت من زيه. حليق الرأس، يرتدي قبعة سوداء، ويحدق إلى هذا الوجه الجامد الممتلئ بعلامات الرعب، وكما صورت لي مخيلتي، مختلطة بعلامات كراهية وغضب، وهو خليط لم تره عيناي من قبل على وجه إنسان! كل هذا اختلط بجبهة ضيقة، وفك سفلي متدلٍّ يعطي وجهًا أقرب إلى القردة، لقد رأيت الموت في صور عديدة من قبل، لكنه لم يبد لي رماديًّا قاتمًا كريهًا مثل هذه الشقة الرمادية القذرة، التي تقبع في إحدى أشهر ضواحي لندن.

نهض الشرطي من على الأرضية، وتقدم محييًا إياي ورفيقي السيد هولمز، معرفًا نفسه لي:

«هذه القضية سوف تصنع ضجة يا سيد هولمز، إنها ليست مثل أي شيء رأيته من قبل»، قالها من عرفت أنه المحقق لستراد.

«ألا توجد أي أدلة؟»، قالها جريجسون في ملل.

«لا أدلة»، رد لستراد.

جثا هولمز على ركبته متفحصًا الجثة، «هل أنت متأكد من عدم وجود أي جروح؟»، سأل مشيرًا بطرف إصبعه الطويل إلى نقاط دم متناثرة على الأرضية.

«نعم»، قالها الاثنان معًا بلا تفكير.

«حسنًا، يبدو أن هذا الدم قد نزف من شخص آخر، ربما يكون القاتل، إذا كان ما نراه هو جريمة قتل، إن هذه القضية تذكرني بقضية مقتل فان يانسن في أوتريخت عام ١٩٣٤، هل تتذكر هذه القضية سيد جريجسون؟».

«لا يا سيدي لا أذكرها».

«إذًا فاقرأ عنها، من المحتم عليك أن تقرأ عنها، لا جديد تحت الشمس يا عزيزي، كل شيء تم سابقًا وما نعيشه أحداث معادة».

كان يستفيض في كلماته، وأصابعه تعمل في براعة وخفة فوق الجثة، تضغط وتشد وتفحص، وعيناه تتحركان بسرعة فائقة في أرجاء الغرفة، ووجهه تكسوه تعبيرات لاحظتها عليه كثيرًا قبل ذلك، وأخيرًا، اختتم الفحص بفتح شفة الرجل السفلى، ثم تمرير أصابعه فوق الحذاء الجلدي الفاخر ذي الرقبة.

كل هذا تم في دقيقة واحدة.

«ألم تحركوه قبل حضورنا؟».

«ليس أكثر مما كان ضروريًّا لأغراض الفحص والتحقيقات»، قالها لستراد.

«حسنًا، يمكنكم أخذه إلى المشرحة، لا يوجد ما يمكن ملاحظته أو فحصه».

مع إتمامه كلمته المقتضبة، تقدم جريجسون ومعه أربعة رجال يحملون محفة، ورفعوا الجثة بأيديهم فوق المحفة، ثم بدأوا يحملونها إلى الخارج عندما سقط خاتم من جثة الرجل فوق الأرضية، وراح يدور حول نفسه حتى استقر أمام قدم لستراد.

«حسنًا، لا بد أن امرأة كانت هنا، هذا خاتم زواج يخص امرأة»، قالها رافعًا صوته.

ثم وضعه فوق راحة يده، وتقدم نحونا، فتجمعنا لنشاهد هذه القطعة الدائرية المصمتة، والتي بلا شك كانت ملتفة حول إصبع عروس، حول إصبع امرأة.

«هذه قضية معقدة»، قالها جريجسون وهو يزفر في ملل، «يعلم اللـه أنها كانت معقدة بما فيه الكفاية قبل حدوث هذا».

«هل أنت متأكد؟ ربما يبسط هذا الأمور أكثر»، قالها هولمز. «حسنًا، لن نستفيد شيئًا من التحديق إلى هذا الخاتم طوال الوقت، أخبرني ماذا وجدتم في جيوبه؟».

«لقد جمعنا كل شيء هناك»، قالها جريجسون وهو يشير إلى صندوق موضوع على إحدى عتبات السلم خارج الغرفة.

«ساعة ذهبية ماركة بارود، صنعت في لندن، مربوطة بسلسلة ذهبية ثقيلة وخاتم ذهبي. قلم ذهبي برأس بولدوج، ومحفظة جلدية صنعت في روسيا، بها بطاقات من السيد إينوخ جي دربر المقيم في كليفلاند، لا حافظة نقود، فقط أموال مرتبة في جيبه، تقريبًا سبعة جنيهات، ونسخة جيب من ديكاميرون بوكاتشيو، مع اسم جوزيف ستانجرسون على الصفحة الأولى، وخطابين كتبا للـ(دربر) نفسه والـ(ستانجرسون) نفسه».

«والعناوين؟»، سأل هولمز في هدوء.

«مبنى البورصة الأمريكية، تحت بند (تترك حتى تسلم)، الرسالتان في الحقيقة من شركة البواخر البخارية، وهي تعلمه بأن الباخرة سوف تترك ميناء ليفربول قريبًا، من الواضح أن هذا التعس كان على وشك العودة إلى نيويورك».

«هل قمتم بأي بحث عن ذلك الرجل؟ أعني ستانجرسون»، سأل هولمز.

«لقد قمنا بذلك فعلاً يا سيدي»، رد جريجسون. «لقد أرسلت إعلانًا وتنويهًا إلى كل الصحف، وأرسلت أحد رجالي إلى مبنى البورصة الأمريكية، لكن بلا أي ردود فعل أو معلومات».

«هل أرسلتم إلى كليفلاند؟».

«أرسلنا تلغرافًا صباح اليوم»، رد جريجسون.

«وكيف صغت الاستفسار؟ أعني كيف كان التلغراف؟».

«كتبنا تفاصيل عن الواقعة، وأخبرناهم أننا سنكون مسرورين لو أمدونا بأي معلومات قد تكون مفيدة».

«ألم تسأل عن أي تفاصيل أو نقاط قد تبدو مهمة وحيوية؟».

«سألت عن السيد ستانجرسون».

«لا شيء أكثر؟»، قالها هولمز وعليه علامات الدهشة من المستوى الذي يبدو عليه رجال سكوتلاند يارد، «ألا يوجد شيء مهم آخر متعلق بالقضية تود أن تسأل عنه؟ ألا تود أن تراسلهم ثانية اليوم؟».

«لقد قلت كل شيء أريد قوله بلا نقصان»، قالها جريجسون في لهجة متحدٍّ هجومية.

عقد شيرلوك حاجبيه محدقًا إلى وجه جريجسون، وكان كما يبدو على استعداد أن يلقي بملاحظة جديدة على رأسه، عندما اقتحم لستراد المكان بعد أن غاب في أثناء هذه المحادثة، وعلامات الرضا والسرور تحتل قسمات وجهه.

«سيد جريجسون»، قالها لستراد ثم أكمل في فخر: «لقد توصلت إلى اكتشاف في غاية الأهمية، والذي كان من الممكن ألا يلاحظه أحد، لولا أنني فحصت الحوائط بكل دقة»، ثم ابتسم وعيناه لامعتان كأنه أحرز هدفًا في شباك جريجسون.

«تعالوا خلفي من فضلكم»، قالها لستراد وهو يقودنا إلى الغرفة الأمامية.

«والآن توقفوا هنا»، ثم أشعل عود ثقاب في كعب حذائه، وقربه من الحائط. «والآن انظروا إلى هذا»، قالها وعلامات النصر والفخر على وجهه الحليق.

لاحظت أن أوراق الحائط قد سقطت من هذا الموضع، في قطع صغيرة، وأن بقعة كبيرة منها سقطت مظهرة هذا الطلاء الأصفر، إلا أن في هذه المساحة، وفوق الطلاء الأصفر، ظهرت كلمة مكتوبة بلون أحمر قانٍ، على ارتفاع يقارب الست أقدام.

RACHE

«ما رأيكم فيما ترون؟»، قالها لستراد بصوت مرتفع متضخم، كأنه في عرض من عروض السيرك! «لقد تم إهمال ذلك؛ لأنه في ركن قصي مظلم من الغرفة، ولأن لا أحد غيري قد فكر أن يبحث هنا، لقد كتبها القاتل بدمه أو بدمها، انظر إلى ذلك السيل من الحروف إلى الأرضية، إذًا لا يوجد انتحار هنا، هذه جريمة. ولكن لماذا اختير هذا الركن بالذات كي تكتب فيه هذه الحروف؟ حسنًا، دعني أخبرك، هل ترى هذه الشمعة الذائبة؟ لقد كانت مشتعلة في ذلك الوقت، وعندما تكون هذه الشمعة مشتعلة، فهذا هو أكثر الأماكن إضاءة في الغرفة، وعندما تطفأ، يصير أكثر الأماكن ظلمة».

«وماذا يعني ما اكتشفته إذًا؟»، قالها جريجسون بصوت تفوح منه رائحة السخرية والاستهزاء.

«ماذا تعني؟ تعني ببساطة أن كاتب هذه الحروف، كان ينوي كتابة الاسم الأنثوي (راشيل RACHEL)، لكن أحدهم قاطعه قبل أن يتم ذلك، احفظ كلماتي هذه جيدًا، عندما تحل هذه القضية، سوف تجد أن امرأة اسمها راشيل لها علاقة بها، ولكن لماذا تضحك يا سيد هولمز، هل كلامي تافه لهذه الدرجة؟ ربما تكون ذكيًّا ونبيهًا ويافعًا، لكن تذكر أن كلب الصيد العجوز هو الأفضل».

«عفوًا أيها المحقق!»، قالها هولمز محاولاً السيطرة على ضحكاته المستفزة من جديد، مثيرًا غضب لستراد أكثر وأكثر، «أعترف بأن لك الفضل في اكتشاف هذا، وكما تقول، من الواضح أن من كتبها هو الشخص الذي ارتكب هذه الجريمة، ولكني لم أجد الوقت الكافي لفحص هذه الغرفة، وهو ما سوف أفعله الآن إذا سمحت لي».

وما إن أتم عبارته، حتى أخرج من جيبه عدسة مكبرة وشريط قياس، وراح يدور في الغرفة، ينحني أحيانًا، ويجثو على ركبتيه أحيانًا، ويتوقف أحيانًا محدقًا إلى نقطة ما، بل إنه انبطح في إحدى المرات على وجهه!

كان كمن استعاد روحه وحياته من جديد. شخص آخر يخفيه تحت جلده، يتحدث إلى نفسه بصوت خافت، أو يصفر أو يدمدم في استحسان.

كان يذكرني بكلب بحث مدرب على أعلى مستوى، يتحرك إلى الأمام والخلف، ويميل رأسه مشتمًّا كل شيء، حتى يصل إلى الغرض المفقود من صاحبه!

لمدة تزيد على العشرين دقيقة، اكتمل فيها بحثه وفحصه وقياسه للغرفة، يقيس بين علامات وضعها في عقله، غير مرئية لأي منا!

في أحد المواضع، جمع قليلاً من التراب الرمادي بكل حرص، ووضع ما جمعه في ظرف صغير، ثم راح يفحص الحروف المكتوبة على الحائط، بدقة شديدة بعدسته المكبرة، حرفًا حرفًا وانحناءة انحناءة، ثم جمع شريط القياس والعدسة في قبضة يده، وأعادهما إلى جيب معطفه راضيًا.

«قالوا قديمًا، إن العبقرية هي القدرة غير المحدودة على تقبل المزيد من الإحباطات»، قالها مبتسمًا، «ولكني أعتقد أنه تعريف سيئ، على الرغم من أنه قابل للتطبيق في أعمال التحقيق».

على الجانب الآخر، لستراد وجريجسون كانا يراقبان هولمز ـالهاوي من وجهة نظرهمـ بمزيد من الفضول والحرص، لقد فشلا في تقبل الحقيقة التي بدأت أدركها الآن، أن أعمال شيرلوك البسيطة الصغيرة، دائمًا ما تقوده إلى تحديد نهاية صحيحة ومنطقية.

«حسنًا، ماذا تعتقد؟»، سأل كلاهما السؤال نفسه.

«سوف تحرمان من مكافأة القضية، إذا قمت أنا بمساعدتكما»، قالها في بساطة، «أنتما تقومان بعمل رائع هنا، وهو ما لا يترك مجالاً لأحد كي يتدخل، ولو للمساعدة». أكمل بصوت يغطي قليلاً على سخرية شديدة منهما، سخرية شعرت بها تملأ جنبات عقله.

«سوف أكون سعيدًا إذا ما أشركتماني في نتائج تحقيقاتكما العظيمة، في الوقت الحالي. وكطلب أخير، أود فقط أن أتحدث مع الشرطي الذي عثر على الجثة، هل من الممكن أن يمنحني أحدكما بياناته؟».

فتح لستراد مفكرته الصغيرة، وراح يقرأ منها بصوت مرتفع:

«جون رانس، هو في وقت الراحة حاليًا، سوف تجده مقيمًا في رقم ٤٦ بساحة أوديلي، في كينسينجتون بارك».

سجل هولمز خلفه بيانات الشرطي، ثم التفت ناحيتي قائلاً: «هيا بنا أيها الطبيب العزيز، دعني أخبرك شيئًا قد يساعد في هذه القضية»، ثم التفت بطرف عينه نحو لستراد وجريجسون، وابتسامة ساخرة تحتل شفتيه: «هذه بالتأكيد جريمة قتل، والقاتل كان رجلاً، طوله أكثر من ست أقدام، شاب أو متوسط العمر، أربعون عامًا على أكثر تقدير، قدماه صغيرتان رغم طوله، كان يرتدي ملابس خشنة ورديئة الصنع، وحذاءً ذا مقدمة مربعة، ويدخن السيجار. جاء إلى هنا مصطحبًا ضحيته في عربة رباعية العجلات، يجرها حصان له ثلاث حدوات قديمة، وواحدة تم تغييرها مؤخرًا في قدمه الأمامية، وغالبًا كان ذا وجه متورد، وأظفار يده اليمنى طويلة بعض الشيء، هذه بعض الاستنتاجات، لكنها ربما تساعدك في حل هذه القضية عزيزي واتسون».

نظرت إليه مندهشًا، ثم حولت بصري إلى الرجلين، اللذين يحدقان إلى وجهي بعضهما، غير مصدقين لما سمعاه.

«إذا كان هذا الرجل قد قتل، كيف تم ذلك؟»، سؤال وجهه لستراد وعلى وجهه أمارات الغباء.

«بالسم يا عزيزي»، قالها هولمز في بساطة، «وشيء آخر أود أن ألفت انتباهك له عزيزي لستراد، هو أن راشي RACHE تعني الانتقام بالألمانية؛ لذا أرجو ألا تضيع وقتك في البحث عن الآنسة راشيل».

ثم التفت، وعلى وجهه ابتسامته الساخرة الواسعة، تاركًا الرجلين خلفه، يضربان أخماسًا في أسداس.

الفصل الرابع
ماذا سيخبرنا جون رانس؟

قاربت الساعة على الواحدة ظهرًا، عندما تركنا المنزل رقم ٣ بحدائق لوريستون، وقادني شيرلوك هولمز إلى أقرب مكتب تلغراف، حيث أرسل تلغرافًا طويلاً، ثم أشار إلى سائق أجرة أن يقلنا معًا إلى العنوان الذي أعطانا إياه لستراد.

«لا شيء أبدًا مثل الدليل الأول الذي تكتشفه بنفسك»، قالها ببساطة، «لقد تكوّن كل شيء في عقلي عن هذه القضية، ومع هذا، ربما نحتاج أن نعرف ما يجب علينا معرفته من ذلك الشخص».

«لقد فاجأتني يا هولمز»، قلتها منبهرًا، «أعتقد أنك لست متأكدًا من كل ما تظهر أنك متأكد منه، كل ما قلته كان ضربًا من العبقرية، أو خرافات من التنبؤ!».

«لا يوجد مكان للخطأ هنا»، قالها في حزم، «الشيء الأول الذي لاحظته عند الوصول، هو أثر الطين من عجلات عربة الأجرة على الأرضية الحجرية، وبالنظر إلى أنها لم تمطر منذ أسبوع حتى ليلة أمس، لذا فالعجلات التي تترك أثرًا كهذا كانت هناك ليلة أمس فقط، كما أن علامات حدوات الخيل كانت هناك، واحدة منها تعطي علامات محددة بشكل جيد عن الثلاثة الآخرين، ما يُظهر بلا شك أنها أجدد من الثلاثة الباقين، وبما أن عربة الأجرة كانت هناك بعد أن بدأ المطر الهطول، ولم تكن هناك في أي وقت خلال النهار ـكما قال جريجسونـ فإنها قد جلبت القتيل والقاتل خلال المساء فقط».

«هذه الملحوظة بسيطة كما تقول، ولكن ماذا عن طول الرجل؟»، سألته.

«ماذا عنه؟ في تسع حالات من عشر، يمكنك أن تعرف طول الرجل من طول خطواته، وبحسابات بسيطة للغاية، ولقد رأيت طول خطوته على الأرضية الحجرية بالخارج، من علامات الطين، وكذلك على الأتربة بالداخل، ثم تأكدت من حساباتي ودقتها، ببساطة لأن الرجل عندما يكتب على الحائط، تقوده غريزته إلى أن يكتب في مستوى عينيه، وقد كان ارتفاع الكتابة بذلك الخط الأحمر يقارب الست أقدام، إن أي طفل صغير قد يلاحظ ذلك».

قالها ببساطة، كأنه يشرب الماء!

«وعمره بحق الشيطان؟».

«إذا كان الرجل بإمكانه أن يخطو بمقدار أربع أقدام ونصف، من دون أي جهد، فإنه بالتأكيد ليس في مرحلة الكهولة أو الشيخوخة، في الحقيقة كانت هذه الأقدام الأربع ونصف القدم، هي اتساع بركة الماء التي عبرها بخطوة واحدة، وهناك آثار المقدمة المربعة للحذاء، لا يوجد أي غموض في الأمر يا عزيزي، ببساطة أنا أطبق ما نستخدمه في حياتنا اليومية العادية، مع بعض الاستنتاجات والملاحظات التي كتبت عنها في تلك المقالة، هل هناك شيء آخر يثير الغموض لديك؟».

«نوع السيجار وأظفار اليد مثلاً؟!»، قلتها ساخرًا أكثر مني متسائلاً.

«الكتابة على الحائط تمت بإصبع السبابة، لرجل غمسها في الدم، وقد مكنتني عدستي المكبرة من أن أرى أن الطلاء الأصفر قد خدش في أثناء ذلك، وهو ما يدل على أن الأظفار كانت طويلة وليست مقلمة، وقد جمعت بعض الرماد المتناثر على الأرض، والذي لا ينتج إلا عن سيجار، إن لي دراسة عن رماد السجائر، لقد كتبت كتابًا صغيرًا عن هذا الموضوع، لقد تدربت على أن أعرف إذا كان الرماد من السجائر العادية أو من السيجار، وهي بعض الملحوظات التي قد تظهر بوضوح لمحقق حقيقي، ليس من عينة جريجسون ولستراد».

«والوجه المتورد يا هولمز؟».

كان الانبهار قد وصل إلى مداه.

«في الحقيقة هذه كانت ضربة حظ ليس إلا، على الرغم من أني متأكد من أنني على حق، أفضّل ألا تسألني عن هذا الجزء حاليًا».

ضغطت بيدي فوق قبعتي، كأنني أحاول كبح جماح عقلي من الهرب من داخل جمجمتي السميكة، «اسمح لي أن أطرح بعض الأسئلة الأخرى، فربما يستريح عقلي من هذه الدوامة، في الحقيقة كلما فكرت في هذه القضية أكثر، زاد غموضها»، ثم قلت متابعًا دون أن أنتظر أن يسمح لي، «ماذا كان يفعل هذان الرجلان في منزل خاوٍ مهجور؟ وكيف ولماذا دخلاه من الأساس، وكيف يمكن لرجل أن يجبر رجلاً آخر على تناول السم؟ ومن أين أتى الدم الذي كتبت به الكلمات؟ وما هو الدافع الحقيقي وراء الجريمة إذا لم تكن السرقة، فكل متعلقات الرجل كانت كما هي، ومن أين أتى خاتم المرأة؟ ولماذا يكتب رجل على الحائط كلمة انتقام بالألمانية قبل أن يترك مكان الجريمة؟ أنا لا أرى أي وسيلة ممكنة لربط كل تلك الأشياء ببعضها والوصول إلى حل».

«في الحقيقة، لقد جمعت كل الصعوبات التي تتعلق بهذه الجريمة، بشكل مثير للإعجاب»، قالها هولمز وابتسامة هادئة تملأ وجهه الطويل، ثم أكمل وعيناه تسرحان خارج العربة:

«هناك الكثير الذي لم يصبح واضحًا أمامي بعد، يا عزيزي واتسون، لقد توصلت إلى الأشياء الرئيسية فقط، أما هذه الكتابة، فقد كانت وسيلة لتضليل الشرطة ليس إلا، الشرطة التي من عينة لستراد المسكين، بمحاولة إدخال العنصرية أو الشيوعية في الأمر، ما كتب على الحائط لم يكتب بواسطة رجل ألماني من الأساس، الحرف A إذا لاحظت، لم يكتب بطريقة كتابة الألمان للحرف نفسه، بل بطريقة تقارب طريقتهم لكن بتخطيط لاتيني للحرف، وهو ما يخبرنا أن من كتب هذه الكلمات هو محتال، حاول تضليل الشرطة، ولكنه بالتأكيد ليس ألمانيًا أبدًا، بالمناسبة، لن أخبرك المزيد عن هذه القضية يا دكتور، فليست هناك أي ميزة لي في أن أكشف لك عن أسراري، وطرقي التي أحل بها غموض القضايا، وإذا أريتك أكثر من ذلك، فلربما تنظر إليّ على أني شخص عادي وغير مميز».

«من المستحيل أن أنظر إليك هكذا»، قلتها مسرعًا، «لقد حولت الاستنتاج المنطقي إلى ما يقارب العلم بالفعل، بطريقة لم تحدث في هذا العالم من قبل».

لمعت عينا صديقي السيد هولمز من الفخر بكلماتي، ومن الطريقة التي قلتها بها، لقد لاحظت أنه حساس جدًّا للإثناء على عمله، كما تكون أي فتاة عندما يثني أحدهم على جمالها!

«سوف أخبرك بشيء آخر»، قالها مفتخرًا، «صاحب الحذاء الجلدي الفاخر، وصاحب الحذاء ذي المقدمة المربعة، جاءا معًا في العربة الأجرة نفسها، وتمشيا معًا من باب العربة إلى المنزل، كأي صديقين، وعندما دخلا إلى المنزل، تمشيا داخل المكان، أو على أقل تقدير، كان صاحب الحذاء الفاخر واقفًا في مكانه، بينما تمشّى صاحب المقدمة المربعة داخل الغرفة، يمكنني قراءة كل ذلك من خلال الغبار الذي يغطي الأرضية، بل ويمكنني أن أقول إنه كلما تمشى زادت حماسته، وهذا يظهر بوضوح في زيادة اتساع خطواته، وهو ما يوضح أن غضبه وسخطه كانا يتزايدان، ثم حدثت المأساة، والآن، لقد أخبرتك بكل ما أعرفه، والباقي مجرد تخمينات لا ترتقي إلى الحقائق، لدينا قاعدة عمل جيدة يمكن البداية منها، فقط علينا أن نسرع لأني متشوق للاستماع إلى كمان نورمان نيرودا، في حفلتها هذا المساء».

دارت محادثتنا بينما عربة الأجرة تخترق الشوارع الموحلة والزلقة، وفي أحد المنحنيات توقفت العربة وصرخ السائق: «ساحة أودلي يا سادة»، مشيرًا بإصبعه نحو ممر صغير، بين مبانٍ من الطوب الذي اسودَّ لونه: «سوف أنتظركما هنا عند عودتكما».

لم تكن ساحة أودلي مكانًا متميزًا، كأي مكان في هذه الضاحية من لندن، قادنا الممر الصغير نحو ساحة مربعة محاطة برصيف مرتفع شكّل ما يشبه السور. سلكنا طريقنا وسط مجاميع من الأطفال المتسخين، والحوائط الشاحبة، حتى وصلنا إلى المنزل رقم ٤٦، حيث الباب الخشبي الذي تزينه لوحة حفر عليها اسم (رانس)، وبعد سؤالنا عرفنا أن الشرطي يرتاح في فراشه، فوقفنا في مدخل المنزل ننتظر قدومه لمقابلتنا.

جاء لمقابلتنا منزعجًا، بوجه غير مرحب بنا على الإطلاق، وقال وهو يمسح وجهه: «لقد سبق وقدمت تقريري في مركز الشرطة».

أخرج هولمز من جيبه قطعة معدنية ذهبية، راح يعبث بها قائلاً: «في الحقيقة، نود أن نسمع ما كتبته يخرج من شفتيك الآن».

نظر الشرطي ناحية القطعة الذهبية، وتبدلت ملامح الانزعاج من على وجهه، إلى شغف وسعادة: «في الحقيقة سوف أخبركما بما تودان معرفته عن طيب خاطر».

«دعنا نستمع إلى ذلك بطريقتك أنت، كما تحب أن تحكيها».

جلس رانس على أريكة تشبه شعر حصان أسود، وفرك عينيه حتى يبعث بعض النشاط في خلايا مخه، ثم قال:

«سوف أخبركما بكل شيء، من حيث بدأ كل شيء، تبدأ ورديتي من العاشرة مساء وحتى السادسة صباحًا، في الحادية عشرة مساء كانت هناك معركة في أحد بارات (وايت هارت)، ثم هدأ كل شيء بسرعة كعادة معارك الخمر، في الواحدة صباحًا بدأت تمطر عندما قابلت زميلي (هاري مارشر)، وتوقفنا قليلاً للدردشة معًا عند ناصية شارع هنريتا، في حوالي الثانية قررت أن أتمشى

قليلاً لأتأكد أن كل شيء هادئ في شارع بريكستون، كان الشارع متسخًا من آثار طين الأمطار، ولم يكن هناك أثر لأي مخلوق في الشارع، ومرت عربة أجرة بجواري ثم لا شيء، كنت أفكر بعمق في أن أربع كؤوس من الجين الساخن سوف تكون مفيدة للغاية في مثل هذا الوقت، عندما رأيت شرارة خاطفة من الضوء تأتي من نافذة بذلك المبنى، أنا أعرف بالطبع أن هذين المبنيين خاويان؛ لأن المالك لم يحصل على مستأجرين منذ فترة، بسبب مشكلات في الصرف، حتى إن المستأجر الأخير قد مات بسبب التيفود، لذا فعندما رأيت شرارة الضوء تأكدت من أن شيئًا غريبًا يحدث في ذلك المنزل، وعندما وصلت إلى الباب...».

«توقفت ولم تقرع الباب، ثم عدت سائرًا إلى بوابة الحديقة من جديد»، قاطعه هولمز: «لماذا فعلت ذلك إذًا؟».

قفز رانس من مقعده، ونظر في ذهول إلى هولمز متابعًا: «هذا صحيح يا سيدي، ولكن كيف عرفت أنني فعلت ذلك، الرب فقط يعرف أنني عدت إلى بوابة الحديقة. عندما وصلت إلى الباب اعتقدت أنه من الصواب أن يكون هناك شخص آخر معي، المكان موحش ومهجور، أنا لا أخاف شيئًا سوى القبر، لكني اعتقدت أنه شبح ذلك الرجل الذي مات بالتيفود، وربما جاء لينتقم ممن قتلوه، لقد منحني هذا الخاطر مبررًا كي أتراجع قليلاً إلى الخلف، وأبحث عمن يساعدني، رحت أنظر عبر الطريق إذا كان زميلي مارشر في الجوار، ولكني لم أره لا هو ولا غيره، لم أر أحدًا بالمرة».

«لم يكن هناك أحد في الشارع؟».

«نهائيًّا يا سيدي، ولا حتى كلب ضال، لذا فقد استجمعت شتات نفسي وعدت إلى الباب ودفعته ببطء، كل شيء كان هادئًا تمامًا بالداخل؛ لذا اتجهت إلى تلك الغرفة التي لمعت الشرارة من نافذتها، كانت هناك شمعة حمراء اللون يتراقص ضوؤها في الظلام، ويسيل شمعها على المدفأة، وفي ضوئها الخافت رأيت...».

«نعم أعلم ما الذي رأيته، وقد تمشيت حول ما رأيته عدة مرات، بل وجثوت على ركبتك بجوار الجثة، ثم مشيت في المكان وحاولت استكشاف المطبخ ثم...».

قفز رانس من جديد وعلى وجهه علامات الرعب، والشك في عينيه، ثم قال فزعًا: «هل كنت مختبئًا في مكان ما هناك تراقب ما أفعله؟»، ثم صرخ متابعًا: «يبدو لي أنك تعلم الكثير مما يفترض ألا تعلمه».

ضحك هولمز بصوت مرتفع، ثم أخرج بطاقة من جيبه ألقاها على طاولة الشاي، القابعة أمام المقعد: «لا تقبض عليّ متهمًا بهذه الجريمة يا هذا، أنا واحد من كلاب الصيد، ولست واحدًا من الذئاب، البطاقة والسيدان جريجسون ولستراد سوف يجيبون عن تساؤلاتك، والآن أكمل ما فعلته بعدها».

نظر رانس نحونا ونحو البطاقة في تردد، ثم عاد إلى مقعده ببطء، محاولاً استعادة هدوئه، وقال متابعًا: «عدت إلى بوابة المنزل وأطلقت صفارتي، والتي وصل صوتها إلى مارشر، وشرطيين غيره جاءا فورًا إلى المكان».

«هل كان الشارع خاويًا قبل حضورهم؟».

«نعم كان خاويًا، إذا تجاهلنا ذلك المتشرد السكير».

«ماذا تعني؟».

نظر رانس إلى الفراغ محاولاً التركيز، وهو يتابع: «لقد رأيت الكثيرين من السكيرين الثملين خلال ورديتي الليلية، لكني لم أر واحدًا مثل ذلك، كان نائمًا على الرصيف بجوار البوابة، سكران حتى الثمالة، ويغني بعقيرة مزعجة أغنية عن شيء ما مما يغنيه الثملون، كان غير قادر حتى على الوقوف من دون أن يساعده أحدهم».

«أي نوع من الرجال كان؟ صفه لي».

بدا جون رانس مشوشًا وفاقدًا للتركيز وهو يحك جبهته، محاولاً التذكر:

«كان نوعًا غريبًا من السكيرين».

«وجهه، ما كان يرتديه، أي شيء من هذا القبيل»، قالها هولمز في نفاد صبر.

«في الحقيقة لقد رأيت وجهه وما يرتديه، لقد ساعدته مع مارشر على النهوض، حسنًا كان رجلاً طويلاً محمر الوجه، نصفه الأسفل لين بعض الشيء و...».

«هذا يفي بالغرض، ثم ماذا فعلتما به؟».

«كان لدينا الكثير مما يجب فعله وما هو أهم من الاهتمام بذلك السكير، أعتقد أنه ذهب إلى منزله في سلام بعدها»، قالها رانس محاولاً افتعال الأهمية في نبرات صوته.

«ماذا كان يلبس؟»، سأله هولمز شاردًا.

«معطفًا بنيًا طويلاً».

«هل كان لديه سوط في يده؟»، سأله هولمز.

«سوط، لا بالطبع وإلا كنت لاحظته».

«بالطبع لا، من المؤكد أنه تركه خلفه في مكان ما، ألم تسمع وتلاحظ أي عربة أجرة بعد ذلك؟».

«لا، بالتأكيد لا»، قالها رانس مومئًا برأسه.

«حسنًا، إليك هذه»، ثم وضع هولمز القطعة الذهبية على الطاولة، وأعاد ارتداء قبعته قائلاً:

«من المؤسف أن أقول ذلك سيد رانس، لكنك لن تترقى أبدًا في الشرطة وستظل كما أنت، ببساطة لأن رأسك يصلح للاستخدام كمزهرية لطيفة، لقد كنت على وشك الترقي إلى عريف أمس، ببساطة لأن الرجل الذي كنت تعاونه على النهوض، وظننت أنه ثمل، هو مفتاح حل هذه الجريمة

بالكامل، لا فائدة من الجدال حول هذا الأمر على أي حال، ولكني ظننت أنه وجب عليّ قول ذلك لك، هيا بنا يا دكتور، لقد انتهينا».

ثم لمس هولمز طرف قبعته، محييًا وجه رانس المحمر من أثر الإهانة، واتجهنا معًا إلى حيث تنتظرنا عربة الأجرة.

«المعتوه الغبي»، قالها هولمز غاضبًا، «كلما أفكر أن ذلك الغبي قد حالفه هذا الكم من الحظ ولم يستغله أبدًا، يتصاعد الدم إلى رأسي من الغضب».

«حسنًا، ما زال الأمر غير واضح لي، يبدو من وصفه أن الرجل يتطابق مع نظريتك عن الطرف الثاني في هذه الجريمة، ولكن لماذا عاد إلى بوابة المنزل بعد أن تركه؟ هذه ليست طريقة من يرتكبون الجرائم في الحقيقة».

«الخاتم يا عزيزي، الخاتم، لقد عاد بسبب ذلك الخاتم، إذا لم تكن لدينا طريقة أخرى للقبض عليه يمكننا أن نتتبع ذلك الخاتم، سوف أراهنك باثنتين مني مقابل واحدة منك أنني سأجده، في الحقيقة لا بد أن أشكرك على ذلك يا دكتور واتسون، لولاك أنت لما كنت ذهبت إلى ذلك المنزل، ولكنت فقدت الفرصة لتطبيق دراستي على الواقع، الدراسة في القرمزي»، قالها هولمز في حماس ثم تابع:

«دعنا نستخدم بعض المصطلحات الفنية، هناك خيط من القرمزي يمر من خلال خياطة عديمة اللون، تربط جنبات الحياة، وواجبنا هو كشف هذا الخيط وعزله، وإظهار كل بوصة منه. والآن، دعنا نتناول الغداء ثم نذهب لحضور حفل نورمان نيرودا، إن إقدامها وتراجعها في العزف لهو أمر رائع ومثير، ما هي تلك المقطوعة التي تعزفها لشوبان؟ نعم، إنها تلك المقطوعة الرائعة التي تبدأ بـ ترا- لا- لا- ليرا- ليرا- لاي»، راح يدندن وهو يريح ظهره في مقعد عربة الأجرة.

راح يدندن مثل قرش شم رائحة الدم، بينما أتأمل أنا، كيف للعقل البشري أن يفكر في كل هذه الجوانب في وقت واحد!

غداء وخيط قرمزي، ومقطوعة شوبان التي تعزفها نورمان نيرودا ببراعة!

الفصل الخامس

لقد جلب الإعلان زائرًا!

كان نشاطنا الصباحي أكثر من اللازم على صحتي الضعيفة، ما يجعلني أشعر بالتعب في فترة ما بعد الظهر. بعد رحيل هولمز إلى الحفل، استلقيت على الأريكة، وحاولت الحصول على بضع ساعات من النوم. كانت محاولة غير مجدية؛ ذهني متحمس جدًّا لكل ما حدث، والأوهام والفضائح التي تكتظ بها الأحداث. في كل مرة أغمض عيني، أرى أمامي وجهًا مشوشًا لذلك الرجل المضطرب، لقد كان الشر المطلق هو الانطباع الذي تركه ذلك الوجه، لدرجة أنني وجدت أنه من الصعب أن أشعر بأي شيء، سوى الامتنان، لأن صاحبه قد اختفى من هذا العالم. مع ذلك، أدركت أن العدالة لا بد من أن تأخذ مجراها الصحيح، إن فساد الضحية لا يعني إغماض عين القانون.

كلما فكرت في الأمر أكثر، كانت فرضية هولمز -أن الرجل قد تم تسميمه- تتجلى أمام عيني. تذكرت كيف كان يشم شفتيه، ولا شك في أنه اكتشف شيئًا أثار الفكرة. ثم، مرة أخرى، إن لم يكن السم، ما الذي تسبب في وفاة الرجل؟ لم تكن هناك جرح ولا علامات على الخنق! لكن من ناحية أخرى، دماء مَن التي كانت على الأرض بهذا الشكل الكثيف؟

لم تكن هناك أي علامات تدل على صراع، ولم تكن هناك أي علامة لأي سلاح قد يكون أصيب به.

ما دامت كل هذه الأسئلة لم تحل، فإن النوم لن يكون أمرًا سهلاً، سواء بالنسبة إلى هولمز أو إليّ، على الرغم من ذلك فقد أقنعني أسلوبه الهادئ والواثق من نفسه، بأنه قد شكّل بالفعل نظرية تشرح كل الحقائق، على الرغم من أنه لم يكن بإمكاني التخمين الفوري مثله.

تأخر جدًّا في العودة، في الحقيقة عاد في وقت متأخر جدًّا، قياسًا على أن الحفل لم ليكن ليؤخره كل هذه المدة.

كان العشاء على الطاولة قبل ظهوره.

«لقد كان حفلاً رائعًا»، قال، بينما يجلس على مقعده: «هل تتذكر ما يقوله داروين عن الموسيقى؟ إنه يدّعي أن قوة إنتاج الموسيقى وتقديرها، موجودة بين الجنس البشري قبل وقت طويل، من قوة الكلام. ولعل هذا هو السبب، في أننا متأثرون بمهارة عازفي الموسيقى، إنها ذكريات في نفوسنا، من تلك القرون الضبابية، عندما كان العالم في طفولته».

«هذه فكرة عريضة للغاية»، غمغمت.

أجاب: «يجب أن تكون أفكار المرء عريضة وواسعة مثل الطبيعة، إذا أرادت أن تفسر الطبيعة»، ثم نظر إلى وجهي وتابع: «ما الأمر؟ أنت لا تبدو على ما يرام، لقد أزعجك شأن

بريكستون هذا».

«في الحقيقة، أزعجني بشدة»، قلت متابعًا: «اعتقدت أنني سأكون أكثر صلابة بعد تجربتي الأفغانية، لقد رأيت رفاقي يُمزقون إلى أشلاء دون أن أفقد أعصابي».

«أستطيع أن أفهم. هناك غموض حول هذا الأمر، غموض يحفز الخيال؛ حيث لا يوجد خيال، لا يوجد رعب. هل قرأت الصحيفة المسائية؟».

«لا».

«إنها تعطي رواية جيدة إلى حد ما عن هذه القضية، على الرغم من أنها تغفل حقيقة أنه عندما تم رفع الرجل من موضعه، سقط خاتم زواج يخص امرأة على الأرض. إنه أمر جيد كذلك».

«لماذا هو أمر جيد؟»، تساءلت.

«انظر إلى هذا الإعلان»، أجاب وهو يشير إلى الصحيفة. «لقد أرسلت واحدًا إلى كل صحيفة، هذا الصباح مباشرة بعد اكتشافنا لهذه القضية».

ثم ألقى الصحيفة إليّ، فمسحت بعيني ذلك الموضع الذي أشار إليه. كان هذا أول إعلان في عمود: «تم العثور عليه». «في بريكستون رود، هذا الصباح»، ثم راح يجوب الغرفة متابعًا، «خاتم زواج ذهب عادي، وجد في الطريق بين حانة وايت هارت وهولن جروف. برجاء التواصل مع دكتور واتسون، ٢٢١ بي، شارع بيكر، بين الثامنة والتاسعة هذا المساء».

ثم تابع: «اعذرني على استخدام اسمك، إذا استخدمت اسمي أنا فإن بعض الأنوف المتطفلة ستحاول التدخل في هذه القضية».

«لا مشكلة في ذلك»، أجبت. «ولكن لنفترض أن أحدهم قد استجاب للإعلان، فأنا لا أملك أي خواتم».

«بل تملك واحدًا»، قالها وهو يسلمني خاتمًا في يدي. «هذا سوف يعمل بشكل جيد للغاية. إنه تقريبًا مطابق لذلك الخاتم».

«وهل تتوقع أن أحدهم سوف يستجيب لهذا الإعلان؟».

«بالطبع، الرجل في المعطف البني، صديقنا ذو الحذاء ذي المقدمة المربعة. إذا لم يأتِ بنفسه، فإنه سيرسل أحدًا من طرفه».

«ألن يعتبرها خطوة خطيرة؟»، تساءلت مندهشًا.

ابتسم متابعًا: «لا، على الإطلاق. إذا كانت وجهة نظري في القضية صحيحة، ولدي كل الأسباب التي تدفعني إلى الاعتقاد بأنها كذلك، فإن هذا الرجل سيخاطر بأي شيء، أكثر من أن يفقد الخاتم. ووفقًا لمفهومي، فقد أسقطه وهو يسيطر على جسد الضحية، ثم بعد أن غادر المنزل، اكتشف أنه فقده، وعاد أدراجه لاستعادته، ولكنه وجد الشرطة تملأ المكان، وبسبب حماقته في ترك الشمعة مشتعلة كان عليه أن يتظاهر بأنه مخمور، لكي تتلاشى الشكوك التي قد تكون قد أثيرت بسبب ظهوره

عند البوابة، والآن ضع نفسك في مكان ذلك الرجل، عند التفكير في الأمر، من المحتمل أنه فقد الخاتم في الطريق بعد مغادرة المنزل، فماذا سيفعل بعد ذلك؟ هل كان يتطلع بشغف إلى الصحف المسائية، أملاً في رؤية الخاتم ضمن الأغراض التي تم العثور عليها؟ سيفعل، وسيكون سعيدًا للغاية. لن يكون هناك أي سبب من وجهة نظره كي تربط الشرطة بين جريمة قتل وبين خاتمه هو بالذات؛ لذا فسوف يأتي أو يرسل أحدًا لأخذ الخاتم، سوف ترى، خلال ساعة سوف يأتي».

«ثم؟!»، متسائلاً غمغمت بها.

«حسنًا، يمكنك تركي أتعامل معه بعد ذلك. هل لديك أي أسلحة؟».

«لدي مسدس الخدمة القديم، وخراطيش قليلة».

«إذًا نظفه واحشُه بالخراطيش، سيكون رجلاً يائسًا عندما أصارحه بما في رأسي، ورغم أني سأفعل ذلك مفاجئًا إياه، لا بد أن نكون مستعدين؛ لأنه سوف يأتي مستعدًّا هو الآخر».

ذهبت إلى غرفة نومي واتبعت نصيحته، وبينما أحشو المسدس سمعت صوت قرع خفيضًا على الباب، ثم صوت همس، وحوارًا خافتًا بين هولمز وأحدهم، وعندما عدت مع المسدس كان قد رفع كل الأوراق والأغراض من على الطاولة، وجلس يثبت أوتارًا جديدة في كمانه.

«المؤامرة تكتمل»، قال في هدوء، «لقد تلقيت للتو جوابًا على برقيتي التي أرسلتها إلى أمريكا. وجهة نظري في القضية صحيحة تمامًا».

«ألا وهي؟»، سألت بفارغ الصبر.

قال: «إن عزفي سيكون أفضل مع هذه الأوتار الجديدة، والآن ضع مسدسك في جيبك. عندما يأتي ذلك الزميل تحدث معه بطريقة عادية. اترك الباقي لي. لا تُخِفه بنظراتك».

نظرت في ساعتي هامسًا: «إنها الثامنة مساء».

«نعم. من المحتمل أن يكون هنا في غضون دقائق، وارب الباب قليلاً وضع المفتاح في الداخل. شكرًا لك! هذا كتاب قديم كئيب، التقطته من كشك أمس، شيء ما بخصوص جنتس، نُشر باللغة اللاتينية في لييج ببلجيكا، في عام ١٦٤٢. كان رأس الملك تشارلز لا يزال ثابتًا على كتفيه عندما تمت طباعة هذا المجلد الصغير البني».

«من الذي طبع الكتاب؟».

«فيليب دي كروي، أيًّا كان هو، فقد كتب على المجلد بحبر خفيف أنه من تأليف ويليام وايت، أتساءل عمن كان وليام وايت، ربما أحد المحامين البراجماتيين في القرن السابع عشر، على ما أفترض، وكتاباته لها خلفية قانونية ما، والآن يأتي رجلنا، كما أعتقد».

لم يكد يتم جملته، حتى سمعنا صوت قرع حلقة الباب الرئيسي بحدة، فقام شيرلوك هولمز بهدوء، ونقل كرسيه في اتجاه باب الشقة، ثم سمعنا الخادم وهو يتحرك بهدوء نحو الباب، ثم صوت المزلاج وهو يفتح.

«هل يعيش الدكتور واتسون هنا؟»، صوت واضح ولكن قاسٍ إلى حد ما. لم نتمكن من سماع رد الخادم، ولكننا سمعنا صوت غلق الباب، وبدأ أحدهم يصعد الدرج. كانت الرؤية ضبابية من تحرك الإضاءة. مرت نظرة من الدهشة على وجه هولمز، وهو يسمع صوت الخطوات في الممر، ثم صوت نقرة خفيفة مهذبة على الباب.

«ادخل»، رفعت صوتي.

وبدلاً من أن يدخل أحدهم بعنف عبر الباب، دخلت امرأة عجوز متجعدة الوجه إلى الشقة، وتعثرت وعلى وجهها تعبير مشوش من حدة الضوء المفاجئة لها، وبعد أن سقط الضوء على وجهها راحت ترمش وهي تحدق إلينا بعينين مشوشتين، وأصابع يديها ترتجف في عصبية داخل جيبيها، قفزت من مكاني ونظرت نحو هولمز مندهشًا، تقابلني نظرته الساخرة كأنما تقول لي: (هل هذا كل ما استطعت عمله كي لا تخيفها بنظراتك؟).

أخرجت من جيبها قصاصة من الصحيفة المسائية، وهي تشير إلى إعلاننا.

«هذا هو ما جلبني إلى هنا، أيها السادة المحترمون».

«خاتم زواج من الذهب في طريق بريكستون. إنه ينتمي إلى ابنتي، سالي، تزوجت في شهر أكتوبر، وزوجها يعمل مضيفًا على متن سفينة الاتحاد، ماذا سيقول إذا جاء ووجدها من دون خاتمها؟ إنه ضيق الخلق في أفضل أوقاته، لكنه سيئ للغاية بشكل خاص عندما يعاقر الشراب، لقد كانت سالي ذاهبة إلى السيرك بالأمس مع...».

«هل هذا خاتمها؟»، سألت وأنا أرفع الخاتم نحو وجهها.

«شكرًا للرب!»، صرخت المرأة العجوز. «سالي ستكون امرأة سعيدة هذه الليلة: هذا هو الخاتم».

«وما هو عنوانك يا سيدتي؟»، سألت وأنا أبدأ تدوين العنوان بقلمي الرصاص.

«منزل رقم ١٣، شارع دنكان، هوندشليتش. إن طريقه صعب للغاية».

قال شيرلوك هولمز بحدة: «طريق بريكستون لا يقع بين أي سيرك وبين هوندشليتش».

استدارت المرأة إلى هولمز، وضيقت عينيها الحمراوين الصغيرتين متابعة: «سألني السيد المحترم عن عنواني أنا، بينما ابنتي سالي تسكن في ٣، مايفيلد بليس، بيكهام».

«واسمك...؟».

«اسمي سوير، بينما اسمها سالي دينيس، منتسبة إلى زوجها توم دينيس، وهو ولد ذكي، نظيف أيضًا ما دام في البحر، وهو أمهر مضيفي السفينة، لكنه عندما يكون على الأرض، فإن النساء والخمور يذهبن عقله تمامًا».

«هذا هو خاتمك، سيدة سوير»، قاطعتها بعد إشارة من شيرلوك. «من الواضح أنه يخص ابنتك، ويسرني أن أتمكن من إعادته إليها».

تناولت الخاتم ووضعته في جيبها، والبركات والأمنيات الطيبة تتساقط من فمها كالدلو يسقط الماء، وراحت ترددها وهي تنزل السلم ببطء، وما إن انصرفت حتى هب شيرلوك هولمز على قدميه وهرع إلى غرفته. عاد في بضع ثوان وهو يلف ربطة عنقه قائلاً: «سأتبعها»، قال بسرعة. «يجب أن تكون شريكة له، وسوف تقودني إليه. انتظرني هنا».

وما إن نزل هولمز، حتى سمعت صوت الباب يغلق، بينما أتابع العجوز من خلال النافذة، تمكنت من رؤية مشيتها الضعيفة على طول الجانب الآخر من الشارع، بينما كان مطاردها ـالسيد هولمزـ خلفها بمسافة قريبة.

«إما أن نظريته كلها غير صحيحة»، قلت لنفسي، «وإما أنه سيفك الغموض الآن». لم تكن هناك حاجة له ليطلب مني الانتظار حتى، لأنني شعرت أن النوم كان مستحيلاً حتى أعرف نتيجة مغامرته.

كان الوقت قريبًا من التاسعة عندما ذهب خلفها. لم تكن لدي أي فكرة عن المدة التي قضيتها منتظرًا إياه، لكنني جلست أدخن غليوني، وأقفز بعيني فوق صفحات كتاب هنري مارجر Vie de Bohème، حتى مرت الساعة العاشرة، وسمعت خطى الخدم وهم يستعدون للنوم.

إنها الحادية عشرة، وصاحبة المنزل تتحرك بخطاها المتثاقلة النفس إلى وجهتها اليومية المعتادة. كانت تقترب من الثانية عشرة عندما سمعت صوتًا حادًّا لمفتاحه. لحظة دخوله رأيت على وجهه أنه لم يكن راضيًا، لكنه فجأة أطلق ضحكة عالية ساخرة.

«لم أكن أعرف أن سخريتي من محققي سكوتلاند يارد سوف تصيبني في أحد الأيام، فقط أستطيع أن أضحك، لأنني أخشى أن أكون معهم في يوم من الأيام».

«ماذا حدث؟»، تساءلت.

«حسنًا، أنا لا أمانع أن أخبرك قصة ألوم فيها نفسي، لقد تبعت تلك العجوز بمشيتها المتعرجة، حتى توقفت إلى جوار سيارة بأربع عجلات، ورفعت صوتها وهي تطلب من السائق توصيلها إلى منزل رقم ١٣، شارع دنكان، هوندشليتش، قالت الأخيرة بصوت مرتفع، حتى إن كل المارة في الشارع سمعوها بوضوح، وعندما بدأت العربة تتحرك، قفزت متعلقًا بها واختبأت حتى وصلت إلى العنوان، وهناك قفزت مترجلاً قبل أن تتوقف، ورحت أتمشى في المكان بهدوء، فقط لأجد السائق ينظر إلى العربة الخالية، وهو يرسم أكبر كمية من الصلبان على صدره ووجهه كأنما رأى الشيطان، وعندما اتجهت نحوه محاولاً مساعدته والسؤال عن صاحب المنزل رقم ١٣، اكتشفت أنه ملك لرجل محترم يدعى كيسويك، وأنه لا يعرف من هو سوير ولا دينيس، ولا أيًّا من زوجاتهما».

«أنت لا تقصد أن تقول...»، صرخت، في ذهول، «إن هذه المرأة العجوز المترنحة الضعيفة، تمكنت من الخروج من العربة في أثناء تحركها، دون أن تتمكن أنت أو السائق من رؤيتها؟».

«المرأة العجوز! عليه اللعنة»، قال شيرلوك هولمز، بشكل حاد. «لقد كنا نحن النساء المسنات اللواتي تمت السخرية منهن»، ثم تابع موضحًا: «إنه شاب نشيط متحرك ومرن ولياقته رائعة، كما أن التنكر كان في غاية الإتقان والروعة، لقد عرف أني أراقبه بلا شك، لذا فقد جرني خلفه واستغل

سذاجتي، وهذا يدل على أن الرجل الذي نتبعه ليس وحيدًا كما تخيلت، ولكن لديه أصدقاء مستعدون للمخاطرة بأي شيء لأجله»، ثم أولاني ظهره متابعًا: «والآن يا دكتور، لقد سهرت كثيرًا، أعتقد أنه من الأفضل أن تنام الآن».

كان يبدو على صوته الشعور العميق بالإهانة، كأن أحدهم صفعه على قفاه مرارًا، دون أن يتمكن من الإمساك به.

لذا، فقد تركته وهو يجلس على مقعده متناولاً الكمان، ودخلت غرفتي محاولاً النوم.

إلا أني بين الفينة والأخرى، كنت أسمع صوت الكمان وهو يزداد حدة، وينخفض تدريجيًّا، ما أوحى إليّ أنه يفكر بعمق في حل لهذه المعضلة التي وضع فيها نفسه.

الفصل السادس
ما الذي فعله توبياس جريجسون؟

كانت الصحف في اليوم التالي مليئة بأخبار عن «لغز بريكستون» ـ كما وصفوهـ كان لكل صحيفة قصة طويلة عن القضية، كما كانت هناك بعض المعلومات التي كانت جديدة بالنسبة إليّ. ما زلت أحتفظ في مفكرتي بقصاصات ومقتطفات عديدة تتحدث عن القضية.

دعني أذكر القليل منها:

«وأشارت صحيفة ديلي تليجراف، إلى أنه في تاريخ الجريمة، نادرًا ما كانت هناك جرائم مماثلة. إن الاسم الأمريكي للضحية، وغياب كل الدوافع الأخرى، والنقش الشرير على الجدار، تشير جميعها إلى ارتكابها من قبل اللاجئين السياسيين والثوريين. كان لدى الاشتراكيين العديد من الفروع في أمريكا، وكان المتوفى بلا شك قد انتهك قوانينهم غير المكتوبة، وتم تعقبه داخل المملكة من قبلهم».

وبعد التلميح برفق إلى العديد من المنظمات والتنظيمات الاشتراكية والشيوعية، ومريدي النظرية الداروينية، اختتم المقال بتنبيه الحكومة، والدعوة إلى المراقبة من كثب لأنشطة الأجانب في إنجلترا.

وعلق الكاتب على حقيقة أن الاعتداءات الخارجة على القانون من هذا النوع، عادة ما تحدث في ظل الإدارة الليبرالية. لقد نشأت من قلة وعي العامة، وما يترتب على ذلك من إضعاف سلطة الدولة.

«كان المتوفى رجلاً أمريكيًّا يقيم منذ عدة أسابيع في متروبوليس، قد أقام في منزل مدام شاربنتييه، في توركاي تراس، كامبرويل. يرافقه في سفره سكرتيره الخاص، السيد جوزيف ستانجرسون. وكان الاثنان قد دفعا القسط الرابع لإقامتهما، ثم غادرا إلى محطة يوستن مع نية اللحاق بقطار ليفربول إكسبرس، بعد ذلك شوهدا معًا في المحطة، ولم يعرف عنهما شيء حتى. تم اكتشاف جثة السيد دربر في منزل فارغ في طريق بريكستون، على بعد أميال عديدة من يوستن. كيف وصل إلى هناك؟ أو كيف التقى قاتله؟ هي من الأسئلة التي لا تزال في غاية الغموض، لا أحد يعرف حتى الآن كذلك مكان ستانجرسون. ويسرنا أن نعلم القارئ أن السيد لستراد والسيد جريجسون من شرطة سكوتلاند يارد، كلاهما مرتبط بالقضية، ومن المتوقع أن يلقي هذان الضابطان المعروفان الضوء سريعًا على هذه القضية».

بينما صرحت صحيفة ديلي نيوز:

«لا يوجد شك في أن الجريمة سياسية. إن الاستبداد والكراهية لليبرالية، كان لهما تأثير في وصول عدد كبير من الرجال إلى شواطئنا، الرجال الذين ربما يصبحون مواطنين ممتازين، إن لم يتأثروا بتذكر كل ما خضعوا له. من بين هؤلاء الرجال، جماعات تحيد عن هذا المسار وتضع ميثاقًا

صارمًا، كي لا يتفوه أحدهم بأسرار باقي الجماعة، ولهذا حدثت الجريمة. ينبغي بذل كل جهد للعثور على السكرتير ستانجرسون، وقد اكتسبت القضية دفعة كبيرة بعد اكتشاف عنوان المنزل الذي كان المتوفى يقيم فيه، وهي النتيجة التي كانت راجعة بالكامل إلى فطنة وجهود السيد جريجسون من سكوتلاند يارد».

قرأنا أنا وشيرلوك هولمز هذه الأخبار في أثناء تناولنا وجبة الإفطار، وبدا أنها توفر له الكثير من التسلية.

«لقد أخبرتك أنه مهما حدث، فإن لستراد وجريجسون سيحصلان على كل الفضل يا عزيزي»، قالها هولمز ساخرًا.

«هذا يعتمد على الكيفية التي تنتهي بها القضية».

«عزيزي واتسون، إذا تم القبض على الرجل، سيكون ذلك بسبب مجهوداتهما وطاقتهما الفياضة، وإذا هرب، سيكون ذلك على الرغم من مجهوداتهما الكبيرة وطاقتهما الفياضة؛ إن الرؤوس لهما دائمًا، والذيل دائمًا لك».

«ما هذه الأصوات المزعجة؟»، لم أكد أتم عبارتي حتى ارتفعت تلك الأصوات، المصحوبة بصيحات الاشمئزاز من مالكة المبنى.

«إنها إدارة شارع بيكر في سكوتلاند يارد».

وفي هذه اللحظة، اقتحم الغرفة ستة من أقذر وأحط المشردين الذين وقعت عليهم عيناي يومًا، صانعين جلبة لا تحتملها أي أذن.

«هيه، أنتم، قليل من النظام هنا»، صاح بهم في حدة، لكنهم اصطفوا في طابور شبيه بطوابير عرض المشتبه بهم، «ألم أقل لكم سابقًا لا داعي لأن تأتوا جميعًا إلى هنا؟ فقط يكفي ويجنز كي يعلمني بالتطورات، والآن يا ويجنز، هل وجدته؟».

«لا يا سيدي، لم نجده»، صاح بها أحد المشردين.

«لم أكن أتوقع منك ذلك. يجب أن تستمر في البحث حتى تجده. ها هو أجركم»، وسلم كل منهم شلنًا فضيًّا في يده. «والآن، عليكم أن تذهبوا وتعودوا بنتيجة أفضل في المرة المقبلة».

ولوح بيده، فانصرفوا وخطواتهم تعبث بخشب الأرضية، حتى سمعنا أصوات جلبتهم الشديدة في الشارع.

نظرت نحوه مندهشًا، إنه يستخدم مشردي الشوارع الصغار، كقوة بحث وتحرٍّ!

«إن ما يستطيع هؤلاء القلة من المشردين أن يصلوا إليه، لهو أفضل مما تقدر عليه دستتان من رجال الشرطة»، قالها هولمز موضحًا كأنما قرأ أفكاري، ثم تابع: «مجرد رؤية شخص ذي زي رسمي تخفي شفاه الرجال وتعقد ألسنتهم، لكن هؤلاء الصغار يذهبون إلى كل مكان، ويسمعون كل

شيء، كما أن معلوماتهم صحيحة كنور النهار، إنهم يحتاجون فقط إلى بعض التنظيم وقليل من المال».

«هل تستخدمهم في قضية بريكستون؟».

«بالطبع، هناك نقطة أود التحقق منها. إنها مجرد مسألة وقت. سوف نسمع بعض الأخبار الآن عن موضوع الانتقام هذا، سوف يأتي جريجسون بعد قليل، ومرسوم على وجهه كتاب كامل من المعلومات، سوف يكون هنا خلال دقائق، لا، بل سيكون هنا الآن».

صوت قرع عنيف على الباب، تبعه بدقائق رأس المفتش جريجسون، الذي ظهر من على الدرج، يقفز الدرج قفزًا، ثلاث خطوات في كل مرة، ثم اقتحم غرفة جلوسنا وهو يصرخ قائلاً: «يا رفيقي العزيز هولمز، امنحني بعض التهنئة، لقد جعلت كل شيء اليوم واضحًا مثل ضوء الشمس».

بدأت ظلال القلق تظهر على وجه هولمز:

«هل تعني أنك على الطريق الصحيح؟»، سأل هولمز.

«الطريق الصحيح! يا سيدي العزيز، لدينا الرجل الآن مقيد بأغلال العقاب».

«واسمه هو؟»، تسأل هولمز.

«آرثر شاربنتييه، ملازم أول في سلاح البحرية في جيش صاحبة الجلالة»، قالها جريجسون منتصب القامة متفاخرًا بنفسه.

ساعتها، تنفس شيرلوك هولمز الصعداء، وظهرت على وجهه ابتسامة مستريحة.

«استرح قليلاً يا توبياس، وجرب بعض هذه السجائر»، ناوله هولمز سيجارة، «هل لك في بعض الويسكي والماء؟ نحن حقيقة حريصون أن نعرف، كيف توصلت إلى هذه النتيجة الباهرة؟».

هل أسمع نبرة ساخرة في صوت هولمز؟!

«أنا لا أمانع إذا أصرّيت»، أجاب المحقق المنتشي. «لقد أرهقتني المجهودات الهائلة التي بذلتها خلال اليوم، أو اليومين الماضيين. وليس المجهود الجسدي بالذات، أنت تفهم، كضغط العقل. سوف تقدر ذلك يا سيد شيرلوك هولمز، لأننا نعمل بعقولنا وليس بأجسادنا».

قال هولمز: «أنت تجاملني كثيرًا عندما تساويني بك، والآن دعنا نسمع، كيف وصلت إلى هذه النتيجة؟».

كان المحقق يجلس في الكرسي، مسندًا ذراعه إلى يد المقعد، ثم صفع فخذه على سبيل الإثارة وتابع:

«إن متعة ذلك هي أن لستراد الذي يظن نفسه ذكيًّا للغاية قد اتخذ المسار الخطأ تمامًا. إنه يتتبع السكرتير ستانجرسون، الذي لم تعد له علاقة بالجريمة من الأساس، ربما أمسك به الآن وملامح الغباء تتصاعد على وجهه».

أعجبه تخيل ما قاله، حتى إنه ضحك بشدة وأوشك على الاختناق، من تداخل ضحكته مع سحب الدخان.

الآن عرفت لماذا يتسلى هولمز بمقارعة هؤلاء العباقرة.

«وكيف جاءتك فكرتك العبقرية؟»، سألته بنبرة تشبه طريقة هولمز، حتى إنه نظر إليّ بطرف عينه لائمًا، ذلك اللوم الذي لم يكن جادًّا فيه بالطبع.

«آه، سأخبركما بكل شيء عن ذلك. بالطبع، يا دكتور واتسون، الصعوبة الأولى التي واجهناها كانت اكتشاف السوابق الأمريكية للمتوفى. كان بعض الناس ينتظرون أن يفيد إعلانهم بأي معلومة، لكن هذه ليست طريقة توبياس جريجسون في الذهاب إلى العمل، فأنت تتذكر القبعة بجانب الرجل الميت؟».

«نعم»، قال هولمز. «صنعت بواسطة جون أندروود وأولاده، ١٢٩، طريق كامبرويل».

بدا جريجسون مندهشًا للغاية:

«لم تكن لدي أي فكرة عن أنك لاحظت ذلك»، قال. «هل ذهبت إلى هناك؟» سأله قلقًا.

«لا»، أجاب هولمز بشكل قاطع.

«رائع»، قالها جريجسون براحة كبيرة. «لا يجب أن تهمل أي فرصة مهما كانت صغيرة».

«بالنسبة إلى العقول العظيمة، لا يوجد شيء صغير»، قالها هولمز ضاغطًا حروفه.

«حسنًا، ذهبت إلى أندروود، وسألته عما إذا كان قد باع قبعة بهذا الحجم والوصف. نظر إلى سجلاته، وجاءني بالمعلومة فورًا، لقد أرسل القبعة إلى السيد دربر، المقيم في نزل شاربنتييه، توركواي تراس، وهكذا حصلت على عنوانه».

«فكرة ذكية، ذكية للغاية!»، غمغم شيرلوك هولمز.

«ثم بعد ذلك، ناديت على مدام شاربنتييه»، وتابع المحقق: «لقد وجدتها شاحبة ومنزعجة للغاية، كانت ابنتها في الغرفة أيضًا ـ وهي فتاة رائعة الجمال ـ لكن الظلال الحمراء حول عينيها لم تبدُ علامة جيدة، وارتجفت شفتاها عندما تحدثت إليها، وهذا لم يفلت من ملاحظتي، وبدأت أشم رائحة فأر، فأنت تعرف هذا الشعور، عندما تأتي بالرائحة الصحيحة، وهو نوع من الإثارة في أعصابك، وعندها سألتها، هل عرفتِ عن قصة الموت الغامض للسيد إينوخ جي دربر، الذي جاء إلى هنا من كليفلاند؟ عندها أومأت الأم برأسها، لم يبدُ أنها قادرة على التفوه بكلمة. انفجرت في البكاء. عندها شعرت أكثر من أي وقت مضى أن هؤلاء الناس يعرفون شيئًا عن هذه المسألة، عندها سألتها بحدة، متى غادر السيد دربر منزلك للحاق بقطار ليفربول؟ فقالت مرتجفة: عند الساعة الثامنة. وراحت تتنحنح وهي تتابع أن سكرتيره، السيد ستانجرسون، قال إن هناك قطارين، واحد في الساعة التاسعة والربع، والثاني عند الحادية عشرة وسوف... عندها قاطعتها بصرامة: هل كان هذا آخر شيء عرفتِه عنه؟».

توقف جريجسون وجرع من كأسه في إثارة، حتى احمرت أذناه وتابع:

«حدث تغيير فظيع على وجه المرأة عندما طرحت السؤال. كانت ملامحها غاضبة للغاية. كان ذلك قبل ثوانٍ من قولها بهدوء: نعم، كان هذا آخر شيء.

كان هناك صمت للحظة، ثم تحدثت الابنة بصوت هادئ وواضح، وقالت: لا يمكن أن يأتي أي خير من الباطل يا أمي. دعينا نكن صريحتين مع هذا الرجل. لقد رأينا السيد دربر مرة أخرى». عندها بكت الأم، وقالت: اللـه يغفر لك! لقد قتلت أخاك»، فقالت الفتاة بهدوء: «أراد آرثر أن نتحدث عن الحقيقة.

قلت لها غاضبًا: كان من الأفضل أن تخبريني بكل شيء الآن. إن نصف الثقة أسوأ من لا شيء. إضافة إلى ذلك، أنت لا تعرفين مدى معرفتنا به. لكنها صرخت لائمة: فلتسقط اللعنات على رأسك يا أليس، ثم نظرت إليّ وقالت: سأخبرك بكل شيء يا سيدي. لا تتخيل أن إخفائي لأمر عن ابني ينبع من أي خوف أن تكون له يد في هذه القضية. على أي حال، فإن خوفي وإخفاء الأمر نابع من خوفي من نظرات التهديد في عينيك، ولكن هذا أمر مستحيل بالتأكيد. إن شخصيته القويمة ومهنته وسوابقه، سوف تمنع أي أحد من إلحاق أي أذى به.

فقلت لها بهدوء: إن أفضل طريقة لذلك، هي أن تجعلي صدرك نظيفًا وتخبريني بكل شيء، فلو كان ابنك بريئًا سوف نثبت ذلك بالطبع. فأجابت: ربما، أليس، من الأفضل أن تتركينا الآن وتذهبي.

وعندما انسحبت ابنتها تابعت: الآن، يا سيدي، لم أكن أنوي أن أخبركم بكل هذا، ولكن منذ أن كشفت ابنتي المسكينة الأمر، فلم يعد لدي بديل، فبعد أن قرّرت الكلام، سأخبرك بكل شيء دون أن أحذف أي شيء. فقلت لها موافقًا: إن هذا هو الحل الأكثر حكمة».

ثم راح ينفث من السيجارة حتى أوشك أن ينهيها، وراح يحكي:

«قالت السيدة شاربنتييه: لقد كان السيد دربر معنا منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع. كان هو وسكرتيره، السيد ستانجرسون، يسافران إلى كل مكان. لاحظت وجود اسم (كوبنهاجن) على كل تعاريف الأمتعة، ما يدل على أن هذا كان آخر توقف لهما. كان ستانجرسون رجلاً هادئًا ومتحفظًا، لكن السيد دربر، يؤسفني أن أقول، كان مختلفًا تمامًا، كان خشنًا في عاداته وفظًا في أسلوبه، وفي ليلة وصوله، أصبح أكثر سوءًا بعد أن أثقل في الشرب. في الواقع، بعد الساعة الثانية عشرة من ذلك اليوم، كان بالكاد يستطيع أن يتزن على قدميه، أما سلوكياته تجاه الخدم فكانت سيئة وفظة بشكل مثير للاشمئزاز، وأسوأ من كل هذا، فقد مارس السلوكيات نفسها تجاه ابنتي، أليس، بل إنه في إحدى المرات تهجم عليها، وحاول احتضانها، وساعتها أثار غضبي وسخطي، بينما اعتذر سكرتيره عن هذا السلوك، بأن سيده أحيانًا ما يكون فظًا ويحيد عن السلوك القويم.

سألتها مستغربًا: ولماذا لم توقفي كل هذا؟ كان بإمكانك طرده في أي وقت.

قالت: كنت أريد طرده في اليوم نفسه الذي جاء فيه.

لكنها تابعت: لقد كانت تجربة مؤلمة. كانا يدفعان جنيهين كاملين في اليوم الواحد، أربعة عشر جنيها في الأسبوع، وهذا هو موسم الركود، أنا أرملة، وقد كلفني تعليم ابني في المدرسة البحرية

الكثير، وكنت أخاف خسارة المال، لقد تصرفت من أجل الأفضل لعائلتي، لكن هذا التصرف الأخير كان أكثر من طاقة تحملي؛ لذا أبلغته أنه ينبغي أن يرحل في اليوم التالي، وكان ذلك سبب ذهابه.

سألتها: ثم؟

فقالت: قلبي عاد يخفق من جديد عندما رأيته يبتعد عني. ابني في إجازة الآن، لكنني لم أخبره بأي شيء من هذا، إنه حاد الطباع، سريع الغضب، وهو مولع بأسرته. عندما أغلقت الباب، بدا كأن حملاً ثقيلاً سقط عن كتفي، لكن للأسف، في أقل من ساعة كانت هناك ضربة للجرس، وعلمت أن السيد دربر قد عاد، وكان متحمسًا جدًّا، ومن الواضح أنه كان في أسوأ حال بعد أن أسرف في الشراب، ثم شق طريقه إلى الغرفة، حيث كنت جالسة مع ابنتي، وأبدى بعض الملاحظات غير المتماسكة عن تفويته قطاره، ثم تحول إلى أليس، واقترح عليها أن تسافر معه إلى الولايات. قال لها، أنت في السن القانونية ولا يوجد قانون يمنعك، لدي المال الكافي لننفقه معًا، لتأتي معي الآن على الفور. يجب أن تعيشي كأميرة.

كانت أليس المسكينة خائفة، إلى حد أنها تكورت حول نفسها من الذعر، لكنه أمسكها من معصمها وراح يسحبها نحو الباب. صرخت، وفي تلك اللحظة، حمدًا للرب، وصل ابني آرثر إلى الغرفة، وخلص شقيقته من يد الوحش، فاختبأنا في حضن بعضنا، ما حدث حينها لا أعرفه بالتفصيل، سمعت أصواتًا وشتائم شائنة وكنت خائفة جدًّا، حتى إنني لم أرفع رأسي لأرى، وعندما اختفت الأصوات نظرت إلى الأعلى، فرأيت آرثر يقف في مدخل الغرفة يضحك، بعصا في يده. وقال: لا أعتقد أن السيد الوغد سوف يزعجنا مرة أخرى. سأذهب وراءه ولنرَ ماذا سوف أفعل به.

وبهذه الكلمات أخذ قبعته ونزل إلى الشارع وعاد مساء، في صباح اليوم التالي سمعنا عن موت السيد دربر الغامض».

ثم أنهى المحقق شرابه بالكامل متابعًا: «جاءت هذه الكلمات بالحرف من شفتي السيدة شاربنتييه شخصيًّا، مع القليل من التنقيح من خلالي. في بعض الأحيان كانت تتحدث بصوت خافت، لدرجة أنني لم أتمكن من تبين الكلمات. لقد أخبرتكما بمختصر عن كل ما قالته، مع ذلك كنت دقيقًا في كل شيء، حتى لا يكون هناك احتمال لحدوث خطأ».

«إنه أمر مثير للغاية»، قالها شيرلوك وهو يغطي فمه ليخفي تثاؤبه! «ثم ماذا حدث بعد ذلك؟».

«عندما توقفت السيدة شاربنتييه عن الكلام»، تابع المحقق المنتشي: «رأيت أن القضية بأكملها علقت على نقطة واحدة، لذا ثبت عيني على عينيها بطريقة كنت دائمًا أجدها فعالة مع النساء. سألتها: في أي ساعة عاد ابنك؟ أجابت: أنا لا أعرف، مساء.

ـ ألم يدق الباب؟

ـ لا، لديه مفتاح للباب.

ـ هل عاد بعد أن أويت إلى الفراش؟

ـ نعم، أعتقد ذلك.

ـ ومتى ذهبت إلى الفراش؟

ـ نحو الحادية عشرة مساء.

ـ أي أن ابنك قد غاب ساعتين، ربما أربعًا أو خمسًا، أنت لا تعرفين بالضبط كم غاب.

ـ نعم فعلاً، لا أعرف بالضبط كم.

ـ ماذا كان يفعل كل هذا الوقت؟ هل تعرفين؟

ـ لا أعرف، وحق الرب لا أعرف.

ابيضت شفتاها وزاغت عيناها مني».

ابتسامة انتصار ارتسمت على وجهه، بعد أن أنهى قصته وتابع: «بالطبع، لم يكن هناك أي شيء آخر يمكن القيام به. لقد اكتشفت أين كان السيد شاربنتييه مختبئًا، وأخذت ضابطين معي، وألقينا القبض عليه. وعندما وضعت يدي على كتفه، وطلبت منه الحضور بهدوء معنا، أجابنا بكل جرأة: أفترض أنك تعتقلني لأنك تشتبه أنني قتلت هذا الوغد دربر، كان تلميحه مثيرًا للشك، لأننا لم نتحدث معه عن أي شيء».

قال هولمز: «جدًّا، مثير للشك جدًّا»، ثم أدار وجهه ناحيتي مبتسمًا.

«كان ما زال يحمل العصا الثقيلة، التي وصفتها الأم بأنها كانت معه عندما تبع دربر، إنها عصاة مصقولة مصنوعة من شجر البلوط».

«ما هي نظريتك، إذًا؟»، سأله هولمز في نفاد صبر.

«حسنًا، نظريتي هي أنه اتبع دربر حتى طريق بريكستون. عندما حدثت هناك مشادة جديدة بينهما، تلقى دربر ضربةً من العصا، في معدته على سبيل المثال، ضربه دون أن يترك أي علامة، ولأن الطريق زلق بفعل المطر، فلم يكن هناك أحد في الجوار، فقام شاربنتييه بجر جثة ضحيته إلى المنزل الفارغ، أما الشمعة والدم والكتابة على الحائط والخاتم، قد تكون جميعها حيلاً كثيرة لتوجيه الشرطة إلى اتجاه خاطئ». قالها المفتش جريجسون، المفتش المشهور بسكوتلاند يارد!

«أحسنت!»، قال هولمز بصوت مشجع يحمل نبرة ساخرة مخفية: «حقًّا، جريجسون، لقد حزت إعجابي، لا بد أن نتعلم منك».

«لقد هنأت نفسي على إدارتي للأمر بهذه الدقة»، قالها المفتش بفخر. «لقد قال الشاب في التحقيق، إنه بعد أن تبع دربر بعض الوقت، نظر إليه الأخير، وأخذ عربة أجرة لكي يفلت منه. وفي طريقه إلى منزله، التقى بزميل قديم، واستغرق وقتًا طويلاً معه بين شراب وثرثرة. وعندما سألناه عن مكان إقامة هذا الزميل القديم، لم يتمكن من إعطاء أي رد مقنع، أعتقد أن الحالة بأكملها تتلاءم مع بعضها بشكل غير عادي، ما يضحكني هو التفكير في لستراد الآن، الذي يسير في اتجاه خاطئ بكل تأكيد، لن يقوده إلا إلى الضياع».

لم يكد يتم عبارته، حتى سمعنا هذا الصوت الذي يخطو فوق درجات السلم، ثم ظهر وجه المفتش لستراد، كان وجهه مضطربًا، بينما كانت ملابسه غير مهندمة. كان من الواضح أنه جاء بنية التشاور مع شيرلوك هولمز، إلا أنه وجد جريجسون جالسًا منتشيًا، وعلى وجهه ابتسامة الانتصار.

«هذه حالة غير مفهومة بالمرة»، قالها لستراد بعد أن خلع قبعته، وبدا عليه التخبط، كأنه لا يعرف ماذا يريد أن يفعل بقبعته، أو بنفسه على العموم.

«عزيزي لستراد، يبدو عليك التخبط، لقد اعتقدت أنك ستصل إلى هذا الاستنتاج. هل تمكنت من العثور على السكرتير، السيد جوزيف ستانجرسون؟»، قالها جريجسون والشماتة تملأ وجهه، إلا أن تجهم وجه لستراد غيّم كسحابة على الغرفة.

«السكرتير، جوزيف ستانجرسون»، قال لستراد بصوت رخيم مليء بالخطورة، «وجد مقتولاً في فندق هوليداي، نحو الساعة السادسة من صباح هذا اليوم».

الفصل السابع

نـــور في الظــلام!

كانت المعلومات التي تلقيناها من لستراد مفاجئة وغير متوقعة، لدرجة أننا جميعًا صدمنا.

قفز جريجسون من كرسيه، بينما صعقت أنا ونظرت إلى هولمز، حدقتاه ضيقتان تنظران في سجلاته الوهمية، بحثًا عن تفسير منطقي، وشفتاه مضمومتان في حزم.

سمعته وهو يغمغم: «ستانجرسون أيضًا، الأمر يتطور».

يبدو أن لستراد سمعه أيضًا.

«كان متطورًا بما فيه الكفاية، يبدو أننا سنعقد مجلس حرب هنا».

«هل أنت متأكد من هذه الأخبار؟»، متلعثمًا قال جريجسون.

«لقد جئت للتو من غرفته»، زفرها لستراد، «كنت أول من اكتشف ما حدث».

«لقد سمعنا وجهة نظر جريجسون في المسألة»، قال هولمز. «هل تمانع السماح لنا بمعرفة ما رأيتموه؟».

«ليس لدي أي اعتراض»، أجاب لستراد، ثم جلس على الكرسي متابعًا:

«أعترف بأنني كنت مع الرأي القائل إن ستانجرسون كان من المشاركين في مقتل دربر، لكن هذا التطور الجديد أظهر لي أنني كنت مخطئًا تمامًا، لقد شوهدا معًا في محطة يوستن، نحو الثامنة والنصف من مساء يوم الثلاثاء، وفي اليومين التاليين تم العثور على دربر في طريق بريكستون، وكان السؤال الذي واجهني هو معرفة كيف فعلها ستانجرسون، بين الثامنة والنصف ووقت الجريمة، وما حدث منه بعد ذلك، لقد أرسلت إلى ليفربول، أعطيتهم وصفًا للرجل، وحذرتهم كي يراقبوا الزوارق الأمريكية، ثم طلبت جميع الفنادق وسألتهم بوضوح عما إذا كانوا قد رأوا أيًّا من رفاق دربر أو سكرتيره، لأن المسار الطبيعي لهذا الأخير سيكون في مكان ما في الجوار ليلاً، قبل أن يقفز إلى مركب ينقله إلى الولايات، لذلك قضيت كل مساء أمس في البحث والاستفسار دون جدوى، بينما هذا الصباح بدأت في وقت باكر جدًّا، وتوصلت إلى المعلومة، وعند الساعة الثامنة، وصلت إلى فندق هوليداي، في شارع ليتل جورج. كان السيد ستانجرسون يعيش هناك، طلبت منهم أن يدلوني على غرفته، وأنني سأصعد إليه لأقابله».

«بدا لي أن مظهري المفاجئ قد يهز أعصابه، ويقوده إلى أن يقول شيئًا غير حذر، تطوع الموظف بأن يريني غرفته؛ كانت في الطابق الثاني، وكان هناك ممر صغير يؤدي إليها. أشار إلى الباب، وكان على وشك النزول مرة أخرى، عندما رأيت شيئًا جعلني أشعر بالريبة، على الرغم من خبرتي التي امتدت على مدار عشرين عامًا. من تحت الباب هناك شريط أحمر صغير من الدم، يمر

إلى الممر، وشكل بركة صغيرة على طول حافة الباب. صرخ الموظف وأغمي عليه تقريبًا، ولأن الباب كان مغلقًا من الداخل، فقد استعنت ببعض الموظفين وحطمناه بأكتافنا. في الداخل كانت نافذة الغرفة مفتوحة، بجوار النافذة، كان جالسًا، جثة رجل في كامل ثيابه، كان ميتًا تمامًا، أطرافه صلبة وباردة، تعرفه الموظف على الفور، باعتباره الرجل النبيل الذي دخل الغرفة تحت اسم جوزيف ستانجرسون، كان سبب الوفاة طعنة عميقة في الجانب الأيسر لا بد أنها قد اخترقت القلب. والآن يأتي أغرب جزء من هذا الاكتشاف، تخيل ما الذي يفترض وجوده فوق الرجل المقتول؟».

«كلمة RACHE، مكتوبة بالدم»، قالها هولمز في هدوء.

أيّده لستراد بصوت عالٍ جدًّا: «أصبت عين الثور يا عزيزي».

أتم عبارته وعاد بظهره إلى المقعد، بينما الصمت الثقيل يخيم على الأجواء.

هناك شيء منهجي وغير مفهوم في أفعال هذا القاتل المجهول. كانت أعصابي، التي كانت ثابتة بما فيه الكفاية، في ميدان المعركة من قبل، تهتز الآن أمام غرابة وبشاعة ما نعرفه عن هذه الجريمة.

«هل شاهده أحد شهود العيان؟ أعني القاتل بالطبع».

«صبي توصيل الألبان، كان يسير في الممر الخلفي وراء الفندق، عندما رأى نافذة الطابق الثاني مفتوحة على مصراعيها، ثم رأى رجلاً ينزل على سلم من سلالم الصيانة بهدوء شديد، حتى إن الفتى ظنه نجارًا أو أحد عمال الفندق، انطباعه أنه رجل طويل القامة، وجهه محمر متورد، يرتدي معطفًا بنيًّا طويلاً، وفي الغالب قضى وقتًا ليس بالقصير في الغرفة، لأنه غسل يديه من الدماء، ومسح سكينه في أغطية الفراش، وجدنا آثارًا تدل على ذلك».

نظرت إلى هولمز، عندما سمعت وصفًا للقاتل الذي تخيله بنفسه منذ يوم، ومع ذلك، لم يكن هناك أي أثر للرضا على وجهه. كان وجهه مسطحًا باردًا.

«هل وجدت شيئًا في الغرفة يمكن أن يكون دليلاً على القاتل؟»، سأل.

«لا شيء. كان ستانجرسون يملك محفظة دربر في جيبه، ولكن يبدو أن هذا كان معتادًا، دربر يشتري وهو يدفع. كانت بها ثمانون جنيهًا، ولكن لم تتم سرقة أي شيء. مهما كانت الدوافع وراء هذه الجرائم غير العادية فإن السرقة بالتأكيد لم تكن أحدها، ولم تكن هناك أوراق أو مذكرات في جيب الرجل المقتول، باستثناء برقية واحدة، مؤرخة من كليفلاند منذ نحو شهر، وتحتوي على كلمات: (جيه إتش في أوروبا). لم يكن هناك أي اسم على الرسالة».

«ولم يكن هناك شيء آخر؟»، غمغم هولمز.

«لا شيء ذا أهمية. كتاب كان الرجل يقرأه قبل نومه، وغليونه ملقى على طاولة بجوار السرير. كان هناك كوب من الماء، وعلى عتبة النافذة علبة صغيرة من الدواء، تحتوي على بضعة أقراص».

وهنا حدث أغرب شيء منذ أن زارنا المفتشان، قفز هولمز من كرسيه فرحًا وصرخ بصوت مرتفع:

«الحلقة الأخيرة المفقودة»، ثم قال متابعًا: «إن قضيتي كاملة تمامًا الآن».

كان المحققان يحدقان إليه في دهشة.

«الآن بين يدي»، قال صديقي بثقة، «كل الخيوط التي شكلت هذا التشابك. هناك بالطبع بعض التفاصيل التي يجب مَلؤها، لكنني على يقين من جميع الحقائق الرئيسية، من الوقت الذي تفرق فيه دربر عن ستانجرسون في المحطة، حتى اكتشاف جسد الأخير، كما لو أنني رأيتها بأم عيني، سأقدم لكم دليلاً على معرفتي، هل يمكنكما أن تحضرا لي هذه الحبوب؟».

أخرج لستراد صندوقًا صغيرًا من جيبه، «المحفظة والكتاب في مركز الشرطة، لم أتمكن إلا من أخذ هذه الحبوب؛ لأنها بدت عادية، إلا أنني ظننت أنك ستعرف منها شيئـ...».

خطف هولمز العلبة من يده وناولها لي.

قال هولمز: «الآن يا دكتور، هل هذه الحبوب تبدو لك كدواء عادي؟».

من المؤكد أنها لم تكن كذلك، كانت ذات لون رمادي لؤلؤي، صغيرة، مستديرة، وشبه شفافة تقريبًا في الضوء. «من شفافيتها، أتخيل أنها قابلة للذوبان في الماء»، لاحظت.

«هكذا بالضبط»، أجاب هولمز. «الآن هل تمانع النزول وجلب ذلك الشيطان الصغير المسكين من أسفل، ذلك الكلب المسكين الذي أرادت صاحبة المنزل أن تطلق الرصاص عليه لتريحه من آلامه».

ذهبت إلى الطابق السفلي وحملت الكلب إلى الطابق العلوي بين ذراعي، كان يئن في ألم، لم يكن بعيدًا عن نهايته في الواقع، أعلنت كمامة الثلج الأبيض على فمه أنه تجاوز بالفعل الحد المعتاد لوجوده ككلب في هذا العالم. وضعته على السجادة في هدوء.

قال هولمز: «سأقوم الآن بقطع واحد من هذه الأقراص إلى نصفين، نصف سنعيده إلى العلبة للأغراض المستقبلية، أما النصف الآخر سوف أضعه في كأس النبيذ هذه، ومعه ملعقة صغيرة من الماء. أنت ترى أن صديقنا الطبيب على حق، وأنه يذوب بسهولة».

«يبدو هذا مثيرًا للاهتمام جدًّا»، قال لستراد في نفاد صبر، «لا أستطيع أن أرى، مع ذلك، ما علاقة هذا بوفاة السيد جوزيف ستانجرسون».

«الصبر يا صديقي، الصبر! ستجد في الوقت المناسب أن كل شيء له علاقة به. سأضيف الآن القليل من الحليب لأجعل هذا الخليط مستساغًا، وعند تقديمه إلى الكلب نجد أنه...».

عندما تكلم كان يحول محتويات الكأس إلى صحن، ويضعه أمام الكلب المسكين، لقد أقنعنا سلوك شيرلوك هولمز الجاد حتى الآن بأن نجلس جميعًا بصمت، ونراقب الحيوان باهتمام، ونتوقع بعض التأثير المذهل.

إلا أن شيئًا لم يحدث، استمر الكلب في التمدد على السجادة، والتنفس بالصورة المنتظمة المتحشرجة نفسها.

أخرج هولمز ساعته، وفي الدقيقة التالية دون نتيجة ظهر تعبير من الاستياء وخيبة الأمل على ملامحه. ضم شفتيه في غضب، نقر بأصابعه على الطاولة، وأظهر كل أعراض نفاد الصبر الحاد. كان منخرطًا جدًّا في تصوره، جدًّا لدرجة أنني شعرت بالأسف الشديد تجاهه، في حين ابتسم المحققان بطريقة ساخرة، ولم يرْضَيا على الإطلاق عما يفعله.

«لا يمكن أن يكون الأمر مجرد مصادفة»، صرخ بها غاضبًا، وراح يجوب الغرفة كنمر حبيس، «من المستحيل أن يكون مجرد مصادفة. تم العثور على الحبوب بجوار ستانجرسون، ومع ذلك، الكلب خامل لا تؤثر فيه، ماذا يمكن أن يعني هذا؟ بالتأكيد سلسلتي الكاملة من المنطق لا يمكن أن تكون كاذبة، هذا مستحيل، لكن هذا الكلب البائس، بالتأكيد... كيف غاب عني هذا؟».

ثم هرع إلى الصندوق الصغير، وأخرج حبة أخرى قسمها إلى نصفين، وكرر خليطه السابق، ثم وضعه أمام الكلب، الذي جف ريقه سريعًا من فعل المرض، فراح يلعقها سريعًا، وما إن أتمها حتى ارتعشت أطرافه وتشنج رأسه، وسقط ميتًا بلا حراك.

زفر شيرلوك في عصبية، ومسح العرق من على جبينه متابعًا: «كان يجب أن أكون أكثر ثقة، من بين الحبتين في هذا الصندوق، كانت واحدة تحمل نوعًا من أكثر السموم فتكًا، والأخرى كانت غير ضارة تمامًا، كان عليّ أن أعلم أن الحبوب خلطت في الصندوق، حتى لا تثير الشكوك».

بدا لي هذا القول الأخير مذهلاً، لدرجة أنني لم أكن أصدق أنه كان متماسكًا رصينًا هكذا، هناك كلب ميت على سجادة شقتنا، لإثبات أن تخمينه كان صحيحًا. وبدا لي أن الضباب في ذهني يتلاشى تدريجيًّا، وبدأت أشعر أن الحقيقة صارت غامضة قاتمة.

«كل هذا يبدو غريبًا عليكم يا سادة»، قال هولمز وهو يدور حول الغرفة.

ثم قال متابعًا، كأنه في عرض مسرحي:

«لأنكم يا سادة، فشلتم في النظر إلى القضية من وجهة نظر شاملة، لم تقدروا على التوصل إلى ما توصلت إليه، كان من حسن حظي أن أستغل ما فهمته، وأن أستخدم عقلي في صنع تسلسل منطقي لأحداث هذه الجريمة، إن الجريمة الأكثر شيوعًا هي الجريمة الأكثر غموضًا، لو كنا وجدنا جثة رجل مقتول غارق في دمه بشكل عشوائي، وقد سرقت أغراضه، لكان الأمر أكثر غموضًا، هذه التفاصيل الغريبة التي رأيناها معًا جعلت القضية أكثر بساطة وأكثر وضوحًا».

استمع جريجسون إلى هذه المحاضرة بنفاد صبر، وقال: «انظروا إلى السيد شيرلوك هولمز العبقري، نحن جميعًا على استعداد للاعتراف بأنك رجل ذكي، وأن لديك أساليب العمل الخاصة بك. نريد شيئًا أكثر من مجرد النظرية والوعظ الآن، لقد وصلت إلى الحل بطريقتي، ويبدو أنني كنت مخطئًا، لم يكن من الممكن أن يكون الشاب شاربنتييه متورطًا في هذه القضية الثانية، أعني مقتل السكرتير، فقد ذهب لستراد للبحث عن سترانجسون والفتى في قبضتنا، ويبدو أنه كان مخطئًا هو الآخر، لقد ألقيت تلميحات هنا وتلميحات هناك، ويبدو أنك تعرف أكثر مما نعرف، لكن الوقت قد حان لأن أسألك مباشرة عن حل هذه الجريمة كما تراه، وكذلك اسم الرجل الذي فعلها».

«لا يسعني إلا الشعور بأن جريجسون على صواب، وهو ما يضايقني في الحقيقة، لكنها الحقيقة»، قال لستراد. «لقد جربنا، وفشلنا. لقد لاحظت أكثر من مرة، منذ أن كنت في الغرفة، أن لديك كل الأدلة التي نريدها، بالتأكيد لن تحجبها بعد الآن».

«أي تأخير في القبض على قاتل»، قلتها في هدوء، «قد يعطيه الوقت لارتكاب بعض الجرائم الجديدة».

وعلى الرغم من ضغطنا جميعًا، استمر هولمز يجوب الغرفة، ورأسه مائل على صدره، كما كانت عادته عندما يستغرق في التفكير.

«لن يكون هناك المزيد من جرائم القتل»، قال أخيرًا، متوقفًا فجأة. «يمكنك أن تضع هذا في الاعتبار، لقد سألتني إذا كنت أعرف اسم القاتل. نعم، أنا أعرفه بالتأكيد، مجرد معرفة اسمه هو شيء صغير، ومع ذلك، هذا ليس مهمًّا إذا قارناه بإمكانية القبض عليه في القريب العاجل، ولدي آمال جيدة في فعل ذلك بسهولة، من خلال بعض الترتيبات الخاصة؛ ولكنه شيء يحتاج إلى معالجة دقيقة، لأن لدينا رجلاً داهية يائسًا نتعامل معه، مدعومًا من قبل مجموعة قوية، وما دام هذا الرجل ليست لديه معرفة الآن بأن أحدهم قد كشفه، فهناك فرصة للقبض عليه، ولكن إذا كان لديه أدنى شك، فإنه سوف يغير اسمه، ويختفي في لحظة واحدة بين أربعة ملايين من سكان لندن. ومن دون إيذاء مشاعركم، فإنني ملزم بأن أقول إنني أعتبر الوصول إلى هذا الرجل أهم من تلك المنافسة الخائبة بينكما، إنه يحتاج إلى عقل ليجده وليس إلى ذراع، وهذا هو السبب في أنني لم أطلب مساعدتكما، وإذا فشلت فسوف أتحمل كل اللوم وحدي، لكنني مستعد لذلك. في الوقت الحاضر، أنا مستعد لأن أعدكما بأن اللحظة التي أستطيع فيها التواصل معكما، دون تعريض خطتي في حل القضية للخطر، سأفعل ذلك».

جريجسون ولستراد أبعد ما يكونان عن الرضا عن هذا التعهد من هولمز، لكن لم يكن أمام أي منهما وقت لإبداء هذا الرأي علانية، لأن هذا المشرد رث الثياب، ويجنز، كان واقفًا عند الباب الآن.

«سيد هولمز» نادى بها على شيرلوك، «عربة الأجرة تنتظرك في الأسفل».

قال هولمز: «يا لك من فتى طيب»، ثم قال موجهًا كلامه إلى جريجسون: «لماذا لا تستخدمون هؤلاء الملائكة في سكوتلاند يارد؟ إن هذه الطريقة تعمل معي على نحو رائع»، وفتح درجًا في خزانة الصحف، مخرجًا منه أغلالاً معدنية، لكنها لا تشبه التي يستخدمونها في سكوتلاند يارد.

«الطريقة القديمة كافية، وفعالة»، غمغم بها لستراد من بين أسنانه، وعلامات الاشمئزاز على وجهه من رائحة الفتى النفاذة.

قال هولمز وهو يبتسم: «جيد جدًّا، جيد جدًّا»، ثم نظر إلى الفتى: «اطلب من السائق أن يصعد إلى أعلى، لكي يحمل الصناديق معنا».

تفاجأت عندما وجدت رفيقي يتكلم، كأنه على وشك السفر في رحلة بها صناديق وحقائب لم أر أيًّا منها هنا. ولأنه لم يقل لي شيئًا عن ذلك، كانت هناك فقط هذه الحقيبة الصغيرة، التي راح يتصنع الانشغال بها.

دخل السائق إلى الغرفة متجهم الوجه شديد السخط.

«هل يمكنك مساعدتي في إغلاق قفل الحقيبة يا زميل»، نادى بها على السائق، الذي اقترب منه وراح يحاول إغلاق القفل.

في تلك اللحظة، سمعنا صوت اصطكاك المعدن، السائق ما زال منكبًّا على القفل، لكن حركته توقفت بينما قفز هولمز واقفًا واستدار نحونا.

«يا سادتي»، صرخ، بعينين مغمضتين، «دعوني أقدم لكم السيد جيفرسون هوب، قاتل إينوخ دربر وجوزيف ستانجرسون».

حدث الأمر كله في لحظة، وبسرعة لم يكن لدي الوقت الكافي لإدراكها، ما زلت أحتفظ بذكريات حية عن تلك اللحظة، من تعابير الانتصار على وجه هولمز وفي نبرة صوته، الوجه المتوحش للسائق ومحاولاته أن يقاوم، ثم انتزاعه يده من قبضة هولمز ومحاولته القفز من النافذة، بعد أن حطم زجاجها بقبضته العارية، لكن لستراد وجريجسون لحقا به قبل أن يكمل قفزته، وجرّاه إلى الغرفة من جديد، وحاول أربعتنا تقويض حركته بلا جدوى، حتى استطاع لستراد أن يقيد قدميه بقطعة قماش كنت ألفها حول رقبتي أحيانًا، ووقفنا نلهث من فرط المجهود.

نفض شيرلوك هولمز ثيابه، وقال في انتصار: «حسنًا، إن لدينا عربة أجرة يمكنها أن تنقله إلى سكوتلاند يارد، قبل أن يحطم شقتنا المسكينة، أما الآن»، صمت وعيناه اللامعتان تجوبان وجوهنا المنهكة، ثم واصل بابتسامة لطيفة، «وصلنا إلى نهاية سرنا الصغير. وإني أرحب بشدة بطرح أي أسئلة تريدون إجاباتها، ما دام الخطر على خطتي الصغيرة قد زال».

ثم أتبع كلماته بابتسامته العريضة، تلك الابتسامة التي صرت أحفظها عن ظهر قلب.

الـجزء الثاني

(بلاد القديسين)

الفصل الأول
في صحراء الملح العظيمة

في الجزء المركزي من القارة الأمريكية الشمالية العظيمة، توجد صحراء قاحلة، والتي كانت بمثابة عائق أمام التقدم الحضاري، للعديد من السنوات الطويلة.

من سييرا نيفادا إلى نبراسكا، ومن نهر يلوستون في الشمال إلى كولورادو في الجنوب، هي منطقة من الهدوء والصمت، حتى إن الطبيعة لم تكن تغير من مزاجها، في جميع أنحاء هذه المنطقة المقفرة الكئيبة، التي تضم الجبال المغطاة بالثلوج، والسماء الواسعة، والوديان القاتمة المظلمة، حيث الأنهار التي تتدفق بسرعة، والسهول الهائلة، تكون في الشتاء بيضاء مع تساقط الثلوج، وفي الصيف تكون رمادية مع الغبار المالح.

لا يوجد سكان في هذه الأرض، قد تقوم فرقة من المشاة أو المستكشفين بعبورها من وقت لآخر، للوصول إلى أراضي الصيد الأخرى، لكن أشجع الشجعان سيشعر بالسعادة عندما يكمل رحلة عبور لهذه الأرض، ويتمكن من رؤية المروج الخضراء من جديد. إن الذئاب والنسور والدببة السوداء، والهوام التي تلتقط قوتها من الصخور، هم السكان الوحيدون لهذه الأراضي القاحلة.

في جميع أنحاء العالم المعروف، لا يمكن أن يكون هناك مشهد أكثر كآبة من المنحدر الشمالي لسييرا بلانكو، فعلى امتداد البصر فوق الأراضي المسطحة العظيمة، تلال تغمرها بقع من القلويات والأملاح، تتقاطع مع كتل من الشجيرات الجافة، بينما على الحافة المنحرفة للأفق، توجد سلسلة طويلة من قمم الجبال المغطاة بالثلوج.

في هذا الجزء الكبير من البلاد لا توجد أي علامة للحياة، لا يوجد طائر في السماء الزرقاء، إلا نسر هزيل يبحث عن جيفة يقتات منها، ولا حركة على الأرض الرمادية الباهتة، إلا من ثعلب بائس يبحث عن طير ميت، وقبل كل شيء، هناك صمت مطلق، لا يوجد صوت في كل تلك البرية العملاقة؛ لا شيء سوى الصمت، والموت.

هنا وهناك، توجد بعض الأشياء البيضاء التي تتلألأ في ضوء الشمس، وتبرز من بين الأملاح المترسبة والقلويات المركزة، إنها عظام، بعضها كبير وخشن وبعضها أصغر حجمًا، تبدو الأولى للثيران والوعول، بينما الأخيرة للبشر، حتى إن المرء يمكنه أن يتتبع طرق القوافل القديمة، من هذه البقايا المبعثرة على الطريق.

وبالنظر إلى هذا المشهد بالذات، وقف هناك في الرابع من أيار/ مايو، عام ١٨٤٧، مسافر شارد، كان ظهوره غريبًا في هذه المساحة، لدرجة توحي بأنه ربما كان شيطانًا هائمًا. كان من الصعب على أحد أن يقول، ما إذا كان أقرب إلى الأربعين أو الستين. كان وجهه هزيلاً، وجلده شبيهًا بقطعة جلد شدت فوق هيكل من العظام؛ بينما كان شعره ولحيته الطويلة بُنيين، تتناثر فيهما درجات الأبيض. وعيناه غائرتان في رأسه، يصدر منهما بريق غير طبيعي. في حين أن اليد التي تحمل

بندقيته، لم تكن أكثر سمكًا من تلك الموجودة في الهيكل العظمي. وبينما كان واقفًا، يحمل على كتفه ربطة رمادية تبدو كأنها ثيابه، اتكأ على سلاحه لكي يقوى على الوقوف، فبدا كأنه جنرال حرب بقامته الفارعة، لكن وجهه الهزيل، وملابسه التي كست أطرافه المنكمشة، أعلنت ما تخفيه نظرات عينيه وقامته، كان الرجل يموت، يموت من الجوع والعطش.

كان قد جاب الوادي بحثًا عن الماء مرات ومرات، لا يمتد أمامه سوى سهول من الملح، وقمم الجبال الموحشة، لا نبات يقتات عليه ولا أشجار وارفة يتظلل بها، في كل هذا المشهد الواسع الذي يختار لنفسه عنوانًا واضحًا، اليأس والضياع، إلى الشمال والشرق والغرب كان يتطلع بعينين متوحشتين، ثم أدرك أن تجواله قد وصل إلى نهايته، وأنه في هذه الصحراء القاحلة كان على وشك الموت.

«لماذا ليس هنا؟ لماذا ليس على سرير من الريش ومنذ عشرين سنة؟»، تمتم وهو يلقي بجسده على الأرض، جالسًا جوار صخرة عملاقة.

قبل أن يجلس، كان قد ألقى على الأرض بندقيته عديمة الفائدة، وربطته الكبيرة المقيدة بشال رمادي، كان يحملها متدلية على كتفه اليمنى، تبدو أنها ثقيلة بالنسبة إلى قوته، لكنها لم تكن ثيابًا على ما يبدو، لأنه خفضها كأنه يتخلص من ثقلها، فسقطت على الأرض بعنف، ومن هناك برز وجه صغير، خائف، مع عينين بنيتين تشعان ذكاء وحيوية، وقبضتين صغيرتين رقيقتين.

«لقد جرحتني!» قال صوت طفولي موبخًا.

أجاب الرجل مشيرًا إلى نفسه: «أنا آسف، لم أقصد ذلك»، وبينما كان يتكلم، فك رباط الشال رمادي اللون، وأخرج طفلة صغيرة تبلغ من العمر نحو خمس سنوات، كانت ترتدي ثوبًا ورديًّا قطنيًّا، وأحزمة من الكتان تربط شعرها، بدت كأن أمًّا ألبستها ورعتها منذ لحظات، ندف بيضاء على شفتيها، لكن ذراعيها وقدميها كانت أفضل حالاً من ذلك الهيكل العظمي الذي تكلمه.

«أين هو الجرح؟»، قالها بنفاد صبر، فأشارت إلى إصبعها، وقالت: «قبّلها وستصير على ما يرام»، قالتها مبتسمة وتابعت: «هذا ما اعتادت أمي فعله. أين هي؟».

«أمك ذهبت، لا أعتقد أنك سترينها قبل وقت طويل».

«ذهبت! أين؟»، قالت الفتاة الصغيرة، «هذا مضحك، لم تقل وداعًا، إنها دائمًا تفعل، حتى إذا كانت ذاهبة لاحتساء الشاي، أما الآن فقد ابتعدت عني ثلاثة أيام، لقد صارت أمي قاسية، أليس هناك ماء أو شيء آكله؟».

«لا، ليس هناك شيء يا عزيزتي. عليك فقط أن تكوني صبورة، وبعدها ستكونين على ما يرام، ليس من السهل التحدث عندما تكون شفتاك جافتين كجلد السلحفاة، ولكن أخبريني، ماذا لديك في يدك اليسرى؟».

«أشياء جميلة!»، صرخت الطفلة الصغيرة بحماس، وفتحت قبضتها على شظية متلألئة من حجر الميكا. «عندما نعود إلى المنزل سأعطيها لأخي بوب».

قال الرجل بثقة: «سترين أشياء أجمل منها في وقت قريب، دعيني أخبرك شيئًا، أتذكرين عندما غادرنا النهر؟».

«نعم، بالتأكيد».

«حسنًا، لقد كنا نأمل أننا سنصل إلى نهر آخر قريبًا، لكن هناك خطأ في البوصلة أو الخريطة؛ ولم يظهر النهر، ونفد الماء. باستثناء قطرات صغيرة».

«لذا فأنت لا تستطيع أن تستحم»، قاطعته وهي تنظر إليه بلومٍ.

«لا، ولا أن أشرب، في البداية رحل السيد بندر، كان هو من يشاء الذهاب، ومن ثم الدليل الهندي، ثم السيدة ماكجريجور، ثم جوني هونز، ثم بوب، ثم أمك».

«إذًا أمي ميتة أيضًا!»، صرخت الفتاة الصغيرة.

«نعم، ذهبوا جميعًا إلا أنت وأنا. ثم ظننت أن هناك فرصة للمياه في هذا الاتجاه، لذلك حملتك على كتفي، لكن لا يبدو الأمر كما لو أننا قمنا بتحسين الأمور. هناك فرصة ضئيلة أمامنا الآن!».

«هل تقصد أننا سنموت أيضًا؟»، سألته الطفلة ببراءة.

«أعتقد أن هذا ما قد يحدث»، قالها بمرارة.

«لماذا لم تقل هذا من قبل؟»، قالتها وهي تضحك بسعادة. «لقد جعلتني أخاف كل هذا الخوف. لماذا؟ بالطبع سأكون سعيدة لو متنا، ما دمنا سنكون مع أمي مرة أخرى».

«نعم، سوف نكون معها يا صغيرتي».

«سأخبرها بغضبي من خيانتها المرعبة. أراهن أنها ستلتقي بنا عند باب الجنة، مع جرة ماء كبيرة، والكثير من قطع الكعك الساخنة والمحمصة على حد سواء، بوب وأنا كنا مولعين بها، إلى متى ننتظر حدوث ذلك؟».

«لا أعرف، ليس طويلاً». كانت عينا الرجل ثابتتين على الأفق الشمالي. في الأفق الأزرق من السماء، ظهرت ثلاث بقع صغيرة، تزداد حجمًا في كل لحظة، اقتربت بسرعة ثلاثة طيور بنية كبيرة، حلقت فوق رأسيهما، ثم استقرت على بعض الصخور، تراقب المسافر وطفلته، إنها رسل الموت.

«دجاج، دجاج»، صرخت الفتاة الصغيرة بسعادة، مشيرة إلى أشكالها السيئة، وتصفق بيديها لتطير.

«قل لي، هل صنع اللـه هذه البلاد؟».

«بالتأكيد»، أجابها مضطربًا من سؤالها المفاجئ.

«لقد صنع البلاد الجميلة في إلينوي وميسوري، أعتقد أن شخصًا آخر صنع البلاد في هذه الأجزاء. لم يكن الأمر على ما يرام. لقد نسي الماء والأشجار».

«ما رأيك بصلاة إليه الآن؟»، سألها، فأجابت بهدوء: «لم يأت الليل بعد».

«لا يهم، لا أظنه قد يمانع، أتذكرين تلك الصلاة التي كنت تتلينها كي يأتي المطر إلى السهول؟».

«أذكرها»، همست الفتاة.

«أنا لا أذكرها»، أجاب، «أنا لم أتلُها منذ أن كنت بطول هذه البندقية، لكن الأوان لم يفت أبدًا، سوف تبدأين وأنا أردد وراءك مثل جوقة الأحد».

«عليك الركوع إذًا»، قالتها الفتاة في هدوء، «عليك أن تضع يديك على هذا النحو. هذا يجعلك تشعر بأنك جيد»، ضمت كفيها وأغلقت عينيها ورفعت رأسها نحو السماء، فقلدها وابتسامة باهتة تعلو شفتيه.

كان مشهدًا غريبًا على أي عين قد تراه ـلو كان هناك أي شيء غير النسور التي تراقبهماـ جنبًا إلى جنب، ركع اثنان من المصلين، في حين أن الصوتين ـصوت رقيق حنون، والآخر عميق وقاسٍـ متحدان في الالتماس، من أجل الرحمة والغفران. انتهت الصلاة، واستأنفا جلستهما بجوار الصخرة، حتى نامت الفتاة من فرط التعب، محتضنة الصدر الواسع لحاميها الهزيل، بينما يراقب سباتها. لكن الطبيعة أثبتت أنها قوية جدًّا بالنسبة إليه، وأنه يريد الغوص الآن في بئر النوم، فلمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، لم يُسمح له بالراحة.

لذا، تدلى جفناه ببطء فوق العينين المتعبتين، حتى اختلطت لحية الرجل الممزوجة بالأبيض، بالخيوط الذهبية لشعر فتاته، ونام كل منهما النوم العميق نفسه بلا أحلام.

لو بقي المسافر المتعب مستيقظًا لمدة نصف ساعة أخرى، لكان قد رأى مشهدًا غريبًا، ففي مكان بعيد على السطح القاسي للسهل الملحي، كانت هناك عاصفة صغيرة من الغبار، طفيفة جدًّا في البداية، ولكن تدريجيًّا نمت عاصفة الغبار، واستمرت في الزيادة، حتى بات من الواضح أن مجموعة كبيرة من المخلوقات المتحركة تمر من هذه الصحراء، ومع اقتراب دوامة التراب، بدأت أغطية العربات المغطاة بالقماش وأجساد الفرسان المسلحين تظهر من خلال الضباب، وظهرت قافلة كبيرة في رحلتها إلى الغرب. قافلة عملاقة، على الجانب الآخر من السهول الهائلة، امتدت لصفوف متشابكة من العربات، والرجال على ظهور الخيل، وسيرًا على الأقدام. عدد لا يحصى من النساء اللواتي كن يترنحن تحت الأعباء، والأطفال الذين يركضون خلف الزواحف الخائفة، بعض المهاجرين الرحل الذين اضطروا إلى السفر كي يجدوا لأنفسهم بلدًا جديدًا. صوت القافلة والصراخ والهمهمة وسنابك الخيل لم تكن كافية لإيقاظ المسافرَين الغارقَين في النوم بجوار الصخرة.

على رأس القافلة هناك رجال ذوو وجوه صلبة قاسية، ومسلحون ببنادق كبيرة، وعند الوصول إلى السهل المنبسط توقفت القافلة، وعُقِد اجتماع قصير بينهم. وقال أحدهم وهو رجل حليق ذو شعر خشن أشيب: «الآبار في اتجاه اليمين يا إخوتي».

وقال آخر: «إلى اليمين تنتهي سييرا بلانكو، ومن ثم سنصل إلى ريو جراندي؛ لذا لا بد من أن نسرع».

«نحن لا نخاف من نفاد الماء»، قالها الرجل ذو الشعر الأشيب، «من يستطيع أن يفجرها من بين الصخور، لن يتخلى الآن عن شعبه المختار».

«آمين! آمين!»، ردد الجميع خلفه.

كانوا على وشك استئناف رحلتهم، عندما صرخ أصغرهم مشيرًا إلى المضيق أعلاهم، كانت هناك آثار واضحة لوجود هنود حمر في الأجواء، شال رمادي أو برتقالي، لم تميز عيناه اللون جيدًا، لكن رفرفة قطعة القماش هي علامة واضحة على وجود السكان الأصليين في الجوار.

«لا يمكن أن يوجد هنود هنا»، قال الرجل المسن الذي يبدو أنه قائد الرحلة، «لا توجد قبائل أخرى في الجوار، حتى نعبر الجبال العظيمة».

«سأذهب إلى الأمام وأرى يا أخي ستانجرسون»، قالها أحد أعضاء فرقة المقدمة.

«وأنا»، «وأنا»، عشرات الأصوات ارتفعت لتذهب معه.

أجاب الرجل المسن: «اتركوا خيولكم هنا وسننتظركم».

سريعًا قام الفتية بربط خيولهم بعضها إلى بعض، وصعدوا المنحدر المتعرج الذي يقودهم إلى العلامات التي أثارت فضولهم، تقدموا بسرعة ودون ضوضاء، متحلين بالثقة والبراعة في ممارسة الكشف والسفر عبر الصحارى، وعند وصولهم إلى الصخرة العملاقة توقفوا مندهشين.

«ما هذا بحق السماء؟»، قالها الشاب الذي لاحظ تلك العلامات في البداية.

على الهضبة الصغيرة التي تعلو التلة القاحلة، في ظل الصخرة العملاقة، رجل طويل القامة، ملتحٍ ومتسخ، أظهر وجهه الهادئ وتنفسه المنتظم أنه كان نائمًا، بجانبه طفلة صغيرة، بذراعها البيضاء المستديرة التي تطوق عنقه المحترق من الشمس الحارقة، ورأسها ذو الشعر الذهبي يستريح على صدره، وابتسامة مرحة على شفتيها الصغيرتين وهي نائمة تحلم، وقدماها يلفهما جوربان بيضاوان وحذاء أنيق مع إبزيم لامع، تباين غريب بينها وبين الرجل الطويل. وعلى حافة الصخرة فوق هذا الزوج الغريب، وقفت هناك ثلاثة نسور مهيبة، تنتظر وجبتها البائسة، لكنها صرخت فزعة وطارت فارة عند رؤيتها للجمع المستكشف.

أيقظت صرخات الطيور النائمَين، استيقظا وتطلعا في حيرة إلى الجمع أمامهما. ارتبك الرجل ونظر إلى أسفل، إلى السهل الملحي الذي كان مقفرًا جدًّا عندما غلبه النوم، والذي صار الآن ممتلئًا بهذا القطيع الهائل من الرجال والبهائم، فراح يفرك عينيه ساخطًا: «هذا ما يسمونه الهذيان، على ما أظن»، غمغم بها في سخط. وقف على قدميه، فوقفت الفتاة إلى جواره تمسك بطرف ثيابه، تنظر إلى كل ذلك في تعجب طفولي.

تعاملت فرقة الإنقاذ مباشرة مع المسافرين، رفع أحدهم الفتاة على كتفه، بينما ساعد آخرون الرجل الهزيل على المشي، «اسمي جون فيرير»، قالها بشفتين متشققتين، «أنا وهذه الفتاة آخر من تبقى من ٢١ شخصًا، الباقون ماتوا جوعًا وعطشًا».

«هل هي ابنتك؟»، سأله أحدهم.

«من الآن صارت ابنتي، من الآن هي لوسي فيرير، أنا أنقذتها، وأنا أحق بها»، ثم ألقى نظرة فاحصة على الشاب، وتابع: «ولكن من أنتم بحق السماء؟ تبدون قوة كبيرة».

«نحن عشرة آلاف شخص، نحن أبناء اللـه، المضطهدون والمختارون من الملاك ميرونا».

«لم أسمع أنه فعل سابقًا»، قالها المسافر الهزيل، «يبدو أنه أخيرًا قد اختار جمهورًا عادلاً».

«لا تسخر مما هو مقدس يا هذا»، قالها الشاب الذي استند إليه في صرامة، متابعًا: «نحن من أولئك الذين يؤمنون بهذه الكتابات المقدسة، المرسومة بأحرف مصرية على ألواح من الذهب، والتي سلمت إلى جوزيف سميث المقدس في تدمر. لقد جئنا من ناوفو، في ولاية إلينوي، حيث تأسس معبدنا. لقد جئنا هاربين من الملحدين والسفلة، حتى ولو كان هروبنا إلى قلب الصحراء».

«ناوفو»، نطق جون فيرير الاسم والذكريات تتداعى إلى رأسه، «إذًا فأنتم المورمون إذًا».

«نحن المورمون»، أجابه الرجال بصوت واحد.

«وإلى أين أنتم ذاهبون؟».

«نحن لا نعرف. يد اللـه تقودنا من خلال مُبشرنا. يجب أن تأتي وتقابله، هو سيحكم ليخبرنا ماذا نحن فاعلون بك».

وصلوا إلى الأرض المنبسطة في هذا الوقت، وكانوا محاطين بجموع الحجيج. نساء متوردات الشفاه وأطفال صغار يضحكون، ورجال جادون صارمون. كانت همهمات الدهشة تصاحب الموكب الذي يتوسطه جون ولوسي الصغيرة، حتى وصلوا إلى عربة كبيرة تجرها ستة خيول، في حين تجر العربات الأخرى زوج خيول فقط. بجانب السائق يجلس رجل في الثلاثينات من عمره، ولكن التعبير الحازم على وجهه جعله يبدو كزعيم. كان يقرأ كتابًا كبير الحجم بني اللون، لكن عندما اقترب الحشد وضعه جانبًا، واستمع باهتمام إلى سرد القصة. ثم التفت إلى المسافرين المشردين:

«إذا أخذناكم معنا»، قال، بكلمات رسمية، «يجب أن تكونوا مؤمنين بعقيدتنا. لن تكون لدينا ذئاب في حظيرتنا، من الأفضل أن تكون عظامك مبيضة في هذه البرية على أن تعيش بيننا وأنت فاسد ملحد، لن نسمح لثمرة فاسدة بأن تفسد باقي السلة، والآن هل تأتي معنا وفقًا لهذه الشروط؟».

قال فيرير: «سأذهب معكم على أي شروط»، احتفظ القائد وحده بتعبيره الجامد، بينما ابتسم كل المحيطين من طريقة جون في قولها.

وهنا قال القائد: «خذه يا أخي ستانجرسون، أعطوه الطعام والشراب، والطفلة بالمثل. فلتكن مهمتك أيضًا أن تعلمه عقيدتنا المقدسة. لقد تأخرنا لفترة كافية. إلى الأمام! إلى صهيون!».

«إلى صهيون!»، صرخ حشد من المورمون، مع شقّ الهواء من السياط، وصرير عجلات العربات، يتحركون في مسيرتهم الخالدة.

«ستبقى معنا»، قالها ستانجرسون العجوز.

«في غضون أيام قليلة، سوف تتعافى وتستعيد وزنك، وفي أثناء هذا، تذكر أنك الآن وإلى الأبد تتبع عقيدتنا المقدسة، لقد حكم بها بريجهام يونج، المبشر المقدس، بعد أن تحدث مع روح جوزيف سميث، وهو روح الرب».

الفصل الثاني

وردة يــوتــاه

هذا ليس المكان المناسب للتذكير بالمحاكمات والصعوبات والأهوال التي تحمّلها المهاجرون المورمون، قبل وصولهم إلى ملاذهم الأخير. من شواطئ الميسيسيبي إلى المنحدرات الغربية لجبال روكي، كانوا يكافحون مع ثبات لا يكاد يُضاهَى في التاريخ؛ الجوع، العطش، الإرهاق، المرض كل عائق يمكن أن تضعه الطبيعة في الطريقـ تغلبوا عليها جميعها بثبات وقوة، ومع ذلك، فإن الرحلة الطويلة والأهوال المتراكمة قد هزت قلوب أشد الناس بينهم. لم يكن هناك شخص لم يركع على ركبتيه في صلاة شكر طويلة، عندما رأوا وادي يوتاه الواسع يستحم تحت ضوء الشمس، وعرفوا من نطق شفتي قائدهم أن هذه هي الأرض الموعودة، وأن هذه السهول الخصيبة البكر هي ملك لهم إلى الأبد.

أثبت يونج أنه إداري ماهر، إضافة إلى أنه زعيم روحي حازم، لقد تم رسم الخرائط وإعداد المخططات للمدينة المستقبلية، ثم تم توزيع جميع المزارع بما يتناسب مع مكانة كل فرد، ثم وضع التاجر مسؤولاً عن تجارته والحرفي عن حرفته.

شوارع المدينة رصفت ومهدت بسرعة كبيرة، كما لو كان من فعل السحر، غرس وزراعة ونظافة، حتى شهد الصيف المقبل حصاد أول محصول قمح. كل شيء ازدهر بطريقة غريبة. وقبل كل هذا، صار المعبد الكبير الذي نصبوه في وسط المدينة أكثر طولاً ومساحة. بل ونصب المهاجرون نصبًا تذكاريًّا عملاقًا ليونج أمام المعبد، عرفانًا بقيادته الحكيمة لهم إلى بر الأمان.

وقد رافق المورمون، جون فيرير والفتاة الصغيرة في حلمهم العظيم. لوسي، بعد أن شفيت من صدمة فقد أمها، سرعان ما أصبحت محبوبة جميع النساء، وتصالحت مع هذه الحياة الجديدة في منزلها المغطى بالقماش. في الوقت نفسه بعد أن تعافى فيرير من آثار أيام الصحراء الطويلة، تميز كمرشد مفيد وصياد لا يعرف الكلل. لذلك اكتسب بسرعة احترام رفاقه الجدد، حتى عندما وصلوا إلى نهاية تجوالهم، تم الاتفاق بالإجماع على أنه يجب أن يزود بمساحات كبيرة وخصبة، مثل أي مستوطن، بعد موافقة ستانجرسون وكيمبال وجونستون ودربر، الذين كانوا يشكلون مجلس المقدسين الأربعة.

في المزرعة التي منحت له، قام جون فيرير ببناء منزل كبير، لقد كان رجلاً عقلانيًّا عمليًّا، حريصًا في تعاملاته، مكّنه روتينه الحديدي من العمل في الصباح والمساء لتحسين أراضيه، حتى إن مزرعته وكل ما يخصه ازدهر بشكل كبير. في ثلاث سنوات كان أفضل حالاً من جيرانه، وفي ست كان في حالة جيدة جدًّا، في تسع كان غنيًّا، وخلال اثنتي عشرة سنة كان هناك ستة رجال في سولت ليك سيتي بأكمله يمتلكون ما يملكه فيرير، وهم ببساطة المبشر المقدس ومجلسه الرباعي فقط!

كان هناك شيء واحد فقط يؤخذ عليه من قبل المورمون، لم يرد أبدًا أن ينشئ أسرة، على الرغم من أن المورمون يسمحون بتعدد الزوجات بلا قيود، لكنه لم يتزوج ولم يعط أبدًا أسبابًا لهذا الرفض المستمر. كان هناك البعض ممن اتهموه بالحيود عن مبادئ دينه، والبعض الآخر الذي فسر الأمر بجشع الثروة، وتردده في تحمل نفقات زوجة. وتحدث آخرون، مرة أخرى، عن علاقة حب مبكرة، وفتاة ذات شعر كستنائي هربت منه على شواطئ الأطلنطي، فصنعت له عقدة كبيرة لم يقدر على نسيانها!

مهما كان السبب، ظل فيرير أعزب تمامًا. عدا ذلك، كان يتمسك بتعاليم دين المستوطنة الصغيرة، واكتسب اسمه صفة الرجل المخلص الملتزم بدينه وعقيدته.

نشأت لوسي فيرير داخل المنزل، وساعدت والدها بالتبني في جميع أعماله، واتخذت من الهواء الحار من الجبال ورائحة أشجار الصنوبر ممرضة وأمًّا وصديقة لها، وبحلول العام الذي نجح فيه جون في بلوغ قمة أمجاده، صارت أكثر طولاً وأكثر أنوثة وأكثر رقة، واكتسبت خطوتها المرونة والليونة.

ازدهرت لوسي كزهرة أمريكية غربية مثالية، كان العابرون بحقل أبيها يفتنون من رقتها وجمالها الأخاذ، صارت لوسي مثالاً للجمال ومطمعًا لكل شباب ولايات الغرب.

ومع ذلك، لم يكن الأب هو الذي اكتشف للمرة الأولى أن الطفلة قد صارت امرأة ـونادرًا ما يكون الأب هو المكتشف في مثل هذه الحالاتـ هذا التغيير الغامض خفي للغاية ودقيق بدرجة لا يمكن قياسها بالتواريخ. على الأقل، كل شيء ستعرفه بنفسها، حتى تسمع نغمة الصوت الحالم، أو لمسة الطبيعة الأم على قلبها، وتتعلم بمزيج من الفخر والخوف كيف أن الطبيعة الأم قد زرعت فيها بذور الأنوثة، وأن موعد قطافها قد حان، هناك عدد قليل من الذين لا يستطيعون تذكر ذلك اليوم، ويتذكرون الحادثة الصغيرة الوحيدة التي بشرت بحقبة من حياة جديدة. في حالة لوسي فيرير، كانت المناسبة جادة وخطيرة في حدّ ذاتها، بصرف النظر عن تأثيرها المستقبلي على مصيرها ومصير عائلتها الصغيرة.

كان صباحًا دافئًا في شهر حزيران/ يونيو، والجميع قد جن جنونه، البغال تتخذ الطريق نحو كاليفورنيا بحثًا عن الذهب الذي اكتشف مؤخرًا، الكل يمر عبر يوتاه قاصدًا ولاية الغرب الصحراوية على شاطئ المحيط، وأعداد كبيرة من الأغنام والثيران تأتي من أراضي المراعي النائية، وقطارات من المهاجرين المتعبين والرجال والخيول في رحلتهم التي لا نهاية لها. من خلال كل هذه المجموعات المتنافسة، تتأرجح في طريقها بمهارة راكب بارع، ظهرت لوسي فيرير فوق جوادها الجميل، وجهها الصبوح وشعرها الكستنائي الطويل الذي يتأرجح خلفها. كانت لديها مهمة عمل كلفها بها والدها في المدينة، لذا كانت تنجز مهمتها كما اعتادت، بكل شجاعة الشباب، غير عابئة بأي مضايقات محتملة. حدق المغامرون الملطّخون بتراب السفر إلى وجهها بدهشة، وحتى الهنود العاطلون الذين يسافرون مع القوافل كأدلة صحراء، الكل توقف عن أداء عمله قليلاً، ليتعجب من ذلك الجمال البكر.

كانت قد وصلت إلى ضواحي المدينة، عندما وجدت الطريق مسدودًا بقطيع كبير من الماشية، مدفوعًا بنصف دستة من رعاة المواشي من السهول. في نفاد صبر سعت لتمر من هذه العقبة، عن طريق دفع حصانها إلى ما بدا أنه فجوة. ولكنها بالكاد مرت منها، قبل أن تغلق الوحوش الفجوة خلفها، ووجدت نفسها عالقة تمامًا في تيار متحرك من ثيران طويلة القرون، ولأنها اعتادت على التعامل مع الماشية لم تكن تشعر بالقلق إزاء وضعها، لكنها استفادت من كل فرصة لحث حصانها، على أمل إكمال طريقها من خلالهم، ولكن لسوء الحظ اصطدمت قرون أحد المخلوقات ـإما عن طريق الصدفة وإما التصميمـ مع جانب الحصان، وأثار ذلك جنون المسكين، فرفع جسده في لحظة على رجليه الخلفيتين من الغضب، وحاول الحصان الخائف أن يقذفها بطريقة من شأنها أن تطيح بأي راكب ماهر.

كان الوضع مليئًا بالمخاطر. كل حركة من الحصان المتحمس تزيد من احتكاكه بالقرون، ودفعه إلى الجنون أكثر، لا بد أن تتمسك بالسرج على الأقل وتحافظ على توازنها، لأن الانزلاق يعني الموت تحت حوافر الحيوانات التي يصعب توقع ردة فعلها، لذا أغمضت عينيها في هدوء محاولة السيطرة، لكن رأسها بدأ يدور، وبدأت قبضتها مرغمة ترخي اللجام.

بعد أن خنقتها السحابة المتصاعدة من الغبار، وتوتر المخلوقات ذات القرون، بدأت تشعر باليأس وأن السقوط آتٍ لا محالة، إلا أن يدًا قوية تدخلت في المشهد، ساحبة لجام الحصان الغاضب، مسيطرة عليه نحو الرصيف البعيد عن القطعان الغاضبة، ثم بعيدًا عن الطريق الرئيسي نحو طريق المزارع.

سمعت الصوت للمرة الأولى في وسط نصف الغيبوبة التي لحقت بها.

«أنت لم تتأذي، أتمنى ذلك يا آنسة»، قالها المنقذ في أدب.

نظرت إلى وجهه الداكن القاسي، وضحكت قائلة بسخرية: «أنا خائفة جدًّا». «من كان يظن أن بونشو كانت خائفة من بعض الأبقار المسكينة؟».

أجابها المنقذ بجدية: «شكرًا للرب أنك حافظت على مكانك فوق الحصان».

كان طويلاً وسيمًا، يبدو عليه التوحش، يرتدي ثياب صيادي الصحراء بألوانها القاتمة، وبندقية طويلة متدلية على كتفيه. «أظن أنك ابنة جون فيرير، لقد رأيتك تخرجين من بيته إلى الطريق. عندما ترينه، اسأليه عما إذا كان يتذكر جيفرسون في سانت لويس. لو كان هو نفسه فيرير الذي أقصده، كان هو وأبي صديقين مقربين».

«ألن يكون أفضل لو جئت وسألته بنفسك؟»، قالتها بهدوء متأملة ملامحه الخشنة.

بدا المنقذ الشاب سعيدًا بهذا الاقتراح، وعيناه تلمعان من السعادة، «سأفعل ذلك». «لقد كنا في الجبال لمدة شهرين، وحالتنا كما ترين لا تصلح لزيارة أحد، لذا يجب أن يقبل زيارتي كما أنا».

أجابت: «أعتقد أنه سيقبل لكي يشكرك على ما فعلته، وهكذا أنا، إنه مولع جدًّا بي. إذا قفزت تلك الأبقار فوقي وقتلتني، فلن يستطيع تجاوز الحزن لعقود».

«ولا أنا في الحقيقة»، قالها الشاب في خفوت.

«أنت! حسنًا»، قالتها مندهشة، «أنا لا أرى أن الأمر يهمك كثيرًا على أي حال. أنت لست حتى صديقًا لنا».

ظهر الإحباط على وجه الصياد الشاب، لكن لوسي فيرير ضحكت بصوت عالٍ متابعة: «لم أكن أقصد ذلك، بالطبع، أنت صديقنا الآن. يجب أن تأتي لرؤيتنا. والآن يجب أن أتحرك فورًا، لدي الكثير لأنجزه وإلا سأفقد ثقة وولع أبي بي، أراك لاحقًا بالتأكيد».

«وداعًا»، أجاب الفتى منحنيًا على يدها الصغيرة مقبلاً إياها، فقفزت فوق الحصان وضربت الهواء بسوطها، واندفعت بعيدًا عبر الطريق الواسع وسط سحابة من الغبار.

يجلس الشاب جيفرسون هوب بين رفاقه، كئيبًا وقليل الكلام. لقد كانوا منذ أيام بين جبال نيفادا للتنقيب عن الفضة، وكانوا يعودون إلى سولت ليك سيتي على أمل تحقيق بعض المكاسب. كان حريصًا مثل أي منهم على إتمام العمل، حتى هذا الحادث المفاجئ الذي وجه أفكاره إلى أمور أخرى. كان مشهد الفتاة الشريفة النشيطة المنعشة مثل نسيم الحقول قد أثار قلبه البركاني الجامح. عندما اختفت عن بصره، أدرك أن أزمة قد حدثت في حياته، وأنه لا التنقيب عن الفضة ولا أي أمور أخرى يمكن أن تكون ذات أهمية بالنسبة إليه أمام هذا الأمر. لم يكن الحب الذي نشأ في قلبه هو الهوى المفاجئ الذي يضرب قلوب الشباب، بل هو شغف وحشي وشرس لرجل قوي الإرادة والشكيمة. كان قد اعتاد على النجاح في كل ما قام به. أقسم في قلبه إنه لن يفشل في الفوز بها، إذا كان الجهد البشري والمثابرة البشرية يمكن أن يجعلاه ينجح في ذلك.

دعاه جون فيرير في تلك الليلة، ودعاه في ليالٍ لاحقة، حتى صار المغامر الشاب وجهًا مألوفًا في مزرعة الثري الشهير المحبوس في وادي يوتاه، لقد كانت لدى جون فيرير فرصة ضئيلة لمعرفة ما يدور في العالم الخارجي، لذا مثّل له جيفرسون تلك النافذة التي تطلعه على آخر المستجدات، كما أن لوسي كذلك اهتمت مثلما اهتم والدها. كان يروي الكثير من القصص المسلية عما يحدث في كاليفورنيا، كما كان كشافًا أيضًا، وصيادًا، ومستكشفًا للفضة وصائد قروش من المحيط، أينما كانت الإثارة والمغامرات، كان جيفرسون هوب موجودًا بحثًا عنها. وسرعان ما صار الصديق المفضل لدى المزارع القديم، الذي يتحدث عن فضائله طوال الوقت، بينما في مثل هذه المناسبات، كانت لوسي صامتة، لكنّ خدَّيها المتوهجين احمرارًا، وعينيها اللامعتين السعيدتين، أظهرت بوضوح شديد أن قلبها الشاب لم يعد ملكها بعد اليوم. ربما لم يلاحظ والدها هذه الأعراض، ولكن من المؤكد أنه لن يبعدها عن الشخص الذي ربح حبها وقلبها.

وفي إحدى الأمسيات الصيفية، جاء جيفرسون عند البوابة. على مدخل المزرعة، ونزلت لوسي للقائه. ألقى اللجام على السياج ووقف يراقبها وهي قادمة.

«أنا راحل يا لوسي»، قال وهو يأخذ يديها بين يديه، ويحدق إليها في حنان، «لن أطلب منك أن تأتي معي الآن، ولكن هل ستكونين مستعدة للرحيل معي عندما أعود؟».

«ومتى سيكون ذلك؟»، سألت في خجل.

«بضعة أشهر يا حبيبتي. لا أحد يستطيع الوقوف بيننا».

«وماذا عن أبي؟»، سألت.

«لقد أعطى موافقته المبدئية، ليس لدي شك في أنه لن يعترض».

«حسنًا، إذا كنت قد رتبت أنت وهو كل شيء، لم يعد هناك ما يقال»، همست وهي تخفض بصرها في خجل.

«شكرًا للرب»، قال بصوت خافت، ثم مال على شفتيها، وقبلها قبلة طويلة.

«أنا راحل يا حبيبتي، لكني سأعود بعد شهرين ومعي المال ومعي المجد، لن أتأخر أبدًا، إلى اللقاء يا صغيرتي الحلوة».

ثم قطع الكلام فجأة وهو يقفز على الجواد، وضرب الهواء بسوطه ليركض الجواد مسرعًا. كان طائرًا من الفرح والسعادة، حتى إنه خاف أن ينظر خلفه فيغير قراره ويتراجع عن رحلته الاستكشافية، لكنه سيعود؛ إن جيفرسون هوب لا يخلف وعدًا قطعه أبدًا.

بينما لوسي ابتسمت، وراحت تلف حول نفسها من السعادة وهي تعود إلى البيت.

إنها في الواقع، أسعد فتاة في يوتاه كلها.

الفصل الثالث

جون فيرير يتحدث مع المبشر

مرت ثلاثة أسابيع منذ أن غادر جيفرسون هوب ورفاقه سولت ليك سيتي. كان قلب جون فيرير متألمًا عندما فكر في عودة الشاب، والخسارة الوشيكة لطفلته المتبناة. إلا أن وجهها المشرق السعيد جعله يتلاءم مع الترتيب الجديد، أكثر مما كان يمكن لأي شيء أن يؤثر في شعوره.

لقد كان دائمًا ما يقرر أن لا شيء يجبره على السماح لابنته بالزواج من المورمون. مثل هذا الزواج يعتبر كأنه لا زواج على الإطلاق، بل هو عار وخزي. أيًّا كان رأيه في مذهب المورمون، فإنه عند نقطة واحدة كان غير مرن. كان عليه أن يغلق فمه حول هذا الموضوع، لأن التعبير عن رأي غير تقليدي كان مسألة خطيرة في تلك الأيام في أرض القديسين.

نعم، أمر خطير، شديد الخطورة لدرجة أن حتى أكثر الرجال جرأة، كان يكتم أي رأي ديني يخالف الجميع، لئلا يسقط عليهم عقابًا سريعًا. لقد تحول ضحايا الاضطهاد سابقًا إلى مضطهِدين! يا لها من مهزلة!

لم تكن محاكم التفتيش في إشبيلية، ولا ألمانيا الاتحادية، ولا الجمعيات السرية في إيطاليا، قادرة على وضع آلية أكثر ترويعًا من تلك التي وضعها القديسون فوق سماء يوتاه.

إن ما يدور في الخفاء من تنظيم حماية المورمون، بسبب غموضه وقسوته، ضاعف من قوة التنظيم الديني، وجعله شديد القدرة على إلحاق الأذى.

منذ أيام وقف رجل أمام الكنيسة معترضًا على بعض أحكامها، ثم اختفى ليلتها فجأة وبلا أثر، لم يعرف أحد أين ذهب ولا ماذا أصابه، كانت زوجته وأطفاله ينتظرونه في البيت، ولكنه لم يعد ليخبرهم ماذا أصابه.

كلمة متهورة أو عمل متسرع، قد تعقبه الإبادة والتحطيم، ومع ذلك لم يكن أحد يعرف ماذا قد تكون طبيعة هذه القوة الرهيبة التي يمكن أن تخفي رجلاً بلا أي أثر. لا عجب أن الرجال يصمتون تمامًا عن أي شكوك حول العقيدة المرمونية في خوف، وأنه حتى في قلب البرية المهجورة لم يجرؤ أحدهم على أن يهمس بتلك الشكوك، حتى بينه وبين نفسه.

في البداية، كانت هذه السلطة الغامضة والفظيعة، تمارس فقط على المتمردين، الذين بعد أن اعتنقوا عقيدة المورمون كانوا يرغبون بعد ذلك في الارتداد والتخلي عنها، لكن بعد ذلك، سرعان ما اتخذ الأمر نطاقًا أوسع.

كان عدد النساء البالغات قليلاً للغاية، ثم بدأت الشائعات الغريبة تتناثر عن مهاجرين قُتلوا في قوافلهم، ومعسكرات مدمرة في مناطق لم يشاهَد فيها الهنود قط، ثم ظهرت نساء جدد في الجوار، النساء اللواتي كن يبكين وينتحبن، ويحملن على وجوههن آثار رعب لا يمكن تصوره، بينما تحدث

المتجولون المتناثرون على الجبال، عن عصابات من الرجال المسلحين، ملثمين، متخفين، يتحركون بلا ضجيج، كانوا يفرون في الظلام. هذه الحكايات والشائعات أخذت المضمون والشكل، وتم تأكيدها وإعادة تأكيدها، حتى أفصحت عن نفسها في اسم واضح.

الملائكة المنتقمون.

المعرفة الكاملة للتنظيم الذي قام بهذه العمليات الرهيبة، عملت على زيادة الرعب في عقول الرجال.

لا أحد يعرف من ينتمي إلى هذه الفرقة القاسية. كانت أسماء المشاركين في أفعال الدم والعنف تحت اسم الدين سرية للغاية. قد يكون الصديق ذاته الذي نقلت إليه شكوكك تجاه المبشر ورسالته، أحد أولئك الذين سيخرجون ليلاً ملثمين يحملون بنادقهم، ليجبروك على دفع تعويض جسيم، ربما يصل إلى حياتك نفسها. ومن ثم صار كل إنسان يخاف حتى من جاره، بل من ولده، ولم يتحدث أحد عن الشكوك التي أخفاها في قلبه لأي أحد.

في صباح أحد الأيام الجميلة، كان جون فيرير على وشك الدخول إلى حقول القمح، عندما سمع صوت فتح المزلاج المعدني لباب المزرعة، وعندما نظر من النافذة، شاهد رجلاً قصيرًا، ذا شعر مصفر، في منتصف العمر، قادمًا في الطريق إلى باب المنزل.

قفز قلبه إلى فمه، لأنه لم يكن سوى بريجهام يونج نفسه، المبشر شخصيًّا في أراضي فيرير، بقلب مليء بالخوف -لأنه كان يعلم أن مثل هذه الزيارات لم تكن جيدة- ركض فيرير إلى الباب لتحية زعيم المورمون. هذا الأخير، مع ذلك، تلقى تحياته ببرود، وتبعه بوجه صارم إلى غرفة الجلوس.

«الأخ فيرير»، قالها بصوته العميق وهو يجلس، ويتطلع إلى المزارع بصرامة، من بين رموشه ذات الألوان الفاتحة، «لقد كان المؤمنون الحقيقيون صديقين حميمين لك. لقد التقطناك عندما كنت تتضور جوعًا في الصحراء، شاركنا طعامنا معك، قدناك بأمان إلى وادي المختارين، وأعطيناك حصة جيدة من الأرض، وسمحنا لك بالتجارة والربح تحت حمايتنا. أليس هذا كذلك؟».

أجاب جون فيرير: «بالطبع إنه كذلك».

«في مقابل كل هذا، سألناك شرطًا واحدًا، يجب أن يملأ الإيمان الحقيقي قلبك، وأن تعيش متوافقًا مع تعاليمه. هذا ما وعدت به، ولكنك -إذا كان التقرير الذي وصلني يقول الحقيقة- قد أهملت في ذلك».

«وكيف أهملت في ذلك؟»، سأل فيرير، «ألم أعطِ تبرعاتي كاملة لصندوق الدعم؟ ألم أحضر إلى المعبد للصلاة؟».

«أين زوجاتك أيها الأخ الطيب؟»، سأل يونج وراح ينظر حوله. «ادعهن كي أحييهن».

«صحيح أنني لم أتزوج»، أجاب فيرير، «لكن النساء كن قليلات يا سيدي، وكان هناك الكثير ممن لهم زوجات وأولويات في الزواج عني، وأنا لم أكن وحيدًا، دائمًا كانت هناك ابنتي لوسي».

قال زعيم المورمون: «عن تلك الابنة أريد أن أتحدث إليك، لقد نمت لتكون زهرة يوتاه اليافعة، والكثيرون ينظرون إليها الآن بأعين مختلفة».

قلب جون فيرير يئن في صدره، كأن المبشر غرس سكينًا فيه.

كان المبشر حادًّا في نظراته، يركز عينيه على وجه جون فيرير، الذي حاول أن يجعله جامدًا خاليًا من أي تعابير.

«هناك قصص يتداولها البعض هنا وهناك، قصص أتمنى أن تكون غير حقيقية، أنت تعرف أن الخمول يحفز الألسنة على اختلاق الحكايات، القاعدة الثالثة عشرة في تعاليم المقدس جوزيف سميث، تقول: لا بد أن تتزوج الفتاة بأحد المؤمنين، لأنها إن تزوجت بغير مؤمن، تكون قد ارتكبت الخطيئة. من هذا المنطلق، يستحيل أن يرتكب رجل مؤمن مثلك تلك الخطيئة، أو أن يسمح لابنته المراهقة المتحمسة بأن تنتهك تعاليم المقدس»، ثم صمت محدقًا إلى وجه جون.

لم يقدم جون فيرير أي إجابة تذكر، عدا همهمة موافقة، واللعب بأصابعه على ذراع المقعد.

«عند هذه النقطة، يجب أن يتم اختبار إيمانك بالكامل، ولذلك، تم إصدار القرار في المجلس الرباعي المقدس بخصوص الفتاة الشابة، لن نكون قاسين عليها، ولن نحرمها من كل الخيارات. نحن الشيوخ لدينا العديد من الفحول المستعدين للزواج، ونريد الحفاظ على نسلنا المقدس كذلك، ستانجرسون لديه ابن، ولدى دربر ابن أيضًا، ويرحب كل منهما بابنتك بكل سرور كزوجة لابنه، وسنكون كريمين ونسمح لها بالاختيار بينهما، استمع لصوت الإيمان الحقيقي يا فيرير، ولا تتردد».

فيرير صامت جامد لا يجيب، بينما داخل جسده تتصارع مئات الثيران الغاضبة الخائفة.

«سوف تمنحنا بعض الوقت قبل إتمام الزواج»، قالها فيرير في هدوء، «ابنتي صغيرة جدًّا، ولم تبلغ بعد السن التي تؤهلها للزواج».

نظر يونج نحوه نظرة جمدت الدم في عروقه، وقال وهو ينهض من على مقعده: «سيكون أمامها شهر للاختيار، ومع نهاية ذلك الوقت سوف تعطي إجابتها النهائية».

ثم اتجه ناحية الباب ليغادر المنزل الجميل، وبينما كان يمر من الباب، التفت إلى فيرير، وراح يمسح المنزل بعينيه المشعتين ببريق غامض، متابعًا: «إن من الأفضل لك أنت وهي، أن تكونا هياكل عظمية متشققة في صحراء سييرا بلانكو، على أن تقفا ضد أوامر المقدسين الأربعة!».

ثم رفع إصبعه نحو وجه جون فيرير مهددًا، واستدار مغادرًا بخطواته الثقيلة الشريرة.

كان فيرير لا يزال جالسًا مسندًا كوعه إلى ركبته، يفكر كيف سيعرض الأمر على ابنته المسكينة، لا يدري كم مر عليه من الوقت عندما وضعت يدها الناعمة على ظهره. وعندما رفع رأسه رآها تقف إلى جانبه، ومن نظرة واحدة على وجهها الشاحب الملتاع، عرف أن الأخبار وصلت إليها قبل أن يخبرها هو.

«لقد سمعت كل شيء، أنا آسفة إن كنت فتاة سيئة تنصتت بلا قصد، لكن يا أبي»، ثم بدأ صوتها يتهدج، «ماذا سنفعل الآن؟».

«لا تخافي يا صغيرتي»، أجاب راسمًا ابتسامة على وجهه، مداعبًا شعرها الكستنائي بيده الخشنة. «سنقوم بإصلاح الأمر بشكل أو بآخر. لا يمكنك أن تجدي رجلاً تتزوجيه من هؤلاء

المعاتيه، أليس كذلك؟».

كان ضغط يدها على كتفه إجابة واضحة صريحة.

«لا، لن يحدث يا صغيرتي، إن الفتى المغامر شاب رائع، رجل متكامل، كما أنه مسيحي وأكثر إيمانًا والتزامًا من هؤلاء السفلة، رغم وعظهم ومعابدهم وكلماتهم الدينية المزيفة. سوف أرسل إليه رسالة مع أحد معارفي الراحلين إلى نيفادا، لإعلامه بالوضع الحقير الذي وقعنا فيه، وسيعود هذا الشاب بسرعة إلى هنا، بسرعة تتجاوز سرعة البرقيات حتى».

ضحكت لوسي من خلال دموعها، سعيدة بوصف والدها للفتى.

«عندما يأتي، سوف ينصحنا بالأفضل»، قالتها لوسي في هدوء، ثم تابعت: «ولكن بالنسبة إليك، فأنا خائفة يا أبي عزيزي. إن المرء يسمع هذه القصص المروعة عن أولئك الذين يعارضون المبشر؛ شيء رهيب يحدث لهم دائمًا». كلماتها متخبطة غير مكتملة الأفكار.

أجاب أبوها: «لكننا لم نعارضه بعد، لدينا شهر كامل أمامنا، في نهاية ذلك سوف نكون خارج يوتاه».

«نترك يوتاه!»، قالتها الفتاة مندهشة.

«هذا أفضل حل».

«لكن المزرعة؟ والمنزل؟ والتجارة؟»، راحت تجوب بعينيها المكان.

«سنأخذ معنا قدر ما نستطيع من المال، ونترك الباقي لهم، في الحقيقة يا لوسي، ليست هذه هي المرة الأولى التي فكرت في القيام بذلك. لا يهمني ما يفعله هؤلاء السفلة من تقديس لمبشرهم المزيف، أنا أمريكي حر، ولدت مقدسًا للرب والمسيح، وما يحدث هنا شيء جديد بالنسبة إليّ. أعتقد أنني كبير في السن ولا أستطيع تعلمه أو تحمله، لذا إن كانت المزرعة هي ثمن حريتنا، فلتذهب إلى حيث ألقت».

«لكنهم لن يسمحوا لنا بالرحيل»، اعترضت ابنته في خفوت.

«انتظري حتى يأتي جيفرسون ونناقش معه الطريقة المثلى، في أثناء هذا، لا تحزني نفسك يا صغيرتي، ولا تُسرِّي بما في نفسك لأي أحد، في الوقت الحالي لا يوجد خطر على الإطلاق».

ثم قبّلها على جبينها مطمئنًا، ومنحها ابتسامة أب حنون مطمئنة.

إلا أنها لم تستطع أن تخفي قلقها في هذه الليلة والليالي التالية، لقد كان أبوها حريصًا على غلق الأبواب في تلك الليلة، وقام بعناية بتنظيف وحشو البندقية القديمة التي علقها على الجدران في غرفة نومه، آخر ما تبقى له من تلك الذكرى في صحراء الملح.

الفصل الرابع
رحلة من أجل الحياة

في الصباح الذي تلا حديثه مع زعيم المورمون، دخل جون فيرير إلى سولت ليك سيتي، وعثر على أحد معارفه، الذي كان متوجهًا إلى جبال نيفادا، أوكل إليه رسالته إلى جيفرسون هوب. وفيها أخبر الشاب عن الخطر الوشيك الذي يهددهم، متى اقتضى الأمر أن يعود. بعد أن فعل ذلك، كان يشعر بالراحة في عقله وقلبه، وعاد إلى المنزل بقلب أقل خوفًا من لقاء الأمس.

عندما اقترب من مزرعته، كان مندهشًا لرؤية حصانين مربوطين على جانبي البوابة. وما زاد دهشته وجود شابين في حجرة جلوسه. واحد ذو وجه شاحب طويل، كان يميل إلى الخلف في الكرسي الهزاز، وهو يضع قدميه فوق الموقد. أما الآخر، وهو شاب ذو رقبة متعرجة ذات ملامح خشنة ومتضخمة، كان يقف أمام النافذة ويداه في جيبيه، يصفر بشفتيه ترنيمة شائعة. كلاهما أومأ إلى فيرير برأسه دون أن يتحرك، بينما بدأ الجالس على الكرسي الهزاز المحادثة.

قال: «ربما لا تعرفنا، هذا إينوخ، الابن الأكبر للسيد دربر، وأنا جوزيف ستانجرسون، اللذان سافرا معك في الصحراء، عندما مد الرب يده إليك أنت وابنتك».

قال الآخر بصوت خرج من أنفه الضخم: «كما يفعل دائمًا بكل الأمم المارقة، يعذبها حتى تدخل حظيرته بعد شرودها».

حنى جون فيرير رأسه ببرود، محييًا الرجلين، كان قد خمّن من هما زائراه.

«لقد جئنا بناء على نصيحة آبائنا المقدسين؛ لطلب يد ابنتك لأي واحد منا توافقان عليه»، تابع ستانجرسون: «أنا لدي أربع زوجات والأخ دربر لديه سبع، لذا فيبدو لي أن موقفي هو الأقوى».

«كلا، كلا، أخي ستانجرسون»، صاح الآخر معترضًا. «السؤال ليس كم عدد الزوجات اللاتي لدينا، ولكن كم عدد ما يمكن أن نحتفظ به. لقد أعطى والدي مصانعه لي، وأنا الرجل الأكثر ثراءً».

بينما رد الآخر بحرارة: «لكن احتمالاتي أفضل». «عندما يطلب الرب أبي، سيكون لديّ ورشة الدباغة ومصنع جلوده. ثم إني أكبر منك سنًّا وأكثر حكمة، وأنا الأعلى في درجات المعبد».

ابتسم دربر وتابع، معقبًا على كلامه: «سيكون من الأفضل أن تقرر محبوبتنا البكر، سنترك كل شيء لقرارها».

خلال هذا الحوار، كان جون فيرير قد استشاط وارتفعت نيران الغضب في قلبه، كان بالكاد يمنع نفسه عن ركل مؤخرتيهما وطردهما من منزله.

«حسنًا أيها الشابان»، نطق أخيرًا، «عندما تقرر ابنتي، يمكنكما القدوم وسماع قرارها، أي بعد شهر من الآن، وحتى ذلك التاريخ، لا أريد أن أرى وجهيكما داخل بيتي أو مزرعتي، هل هذا

واضح؟».

كان الشابان يحدقان إليه في دهشة، لقد قطع عليهما صراعهما للفوز بالبكر الجميلة.

«هناك طريقتان للخروج من الغرفة»، قالها فيرير والدم يغلي في عروقه، «هناك الباب، وهناك النافذة، أي الطريقتين تفضلان؟».

بدا وجهه البني متوحشًا صلبًا، وقد بلغ الغضب منه مبلغه، وتناول سوطه الجلدي من على مسمار تعليقه ثم التفت إليهما، فانطلق الشابان ولاذا بالفرار من المنزل بينما يتبعهما غاضبًا.

«يجب عليك أن تأخذ حذرك يا هذا»، صرخ بها ستانجرسون، وهو يركض نحو باب المزرعة، «إنك تتحدى المبشر ومجلس الأربعة، إنها نهاية أيامك أيها العجوز».

«يد الرب ستكون ثقيلة عليك»، صرخ بها الشاب دربر، «وسوف تضربك بقوة لا قبل لك بها».

«إن لم ترحلا الآن وفورًا سوف أقتلكما كالغنم النافقة»، صرخ فيرير ثم قفز على درجات السلم نحو الطابق العلوي، وأحضر بندقيته القديمة، لكن لوسي ظهرت من غرفتها وأمسكت ذراعه، بينما صوت حوافر خيولهما تنهب الأرض هاربة من غضبه.

«الأوغاد الحقراء»، صاح وهو يمسح العرق من جبهته. «إني أفضل أن أراك في قبرك، على أن تكوني زوجة أي منهما».

«وأنا أيضًا يا أبي»، ربتت على كتفه، «لكن جيفرسون سيأتي قريبًا».

«نعم، لن يمر وقت طويل قبل أن يأتي. وكلما كان ذلك أسرع، كان أفضل، لأننا لا نعرف ما قد تكون هي الخطوة التالية لهؤلاء الأوغاد».

«لا بد أن يأتي بسرعة، إننا أحوج ما نكون إلى مساعدته الآن»، قالها المزارع العجوز لنفسه، وهو يخفي قلقه بابتسامة منهكة، لابنته الجميلة. في تاريخ استيطان المورمون بأكمله، لم تكن هناك مثل هذه الحالة من عصيان سلطة المبشر، ومجلس الأربعة المقدسين، لقد وقعت عقوبات على أخطاء بسيطة جدًّا، مثل الهمس واللغو والتشكك في بعض أحكام المجلس، بمنتهى القسوة والشدة، فماذا سيكون مصير هذا التمرد الصريح إذًا؟

عرف فيرير أن ثروته وسلاحه لن تكون لهما فائدة، إنهم في منتهى القسوة والبطش، هو رجل شجاع، لكنه ارتعد من المصير الغامض الذي قد يلاقيه هو وفتاته. أي خطر معروف يمكن أن يواجهه بقوة وحزم، ولكن هذا الغموض كان مثيرًا للقلق والرعب.

أخفى مخاوفه عن ابنته، ومع ذلك ظهر عليه التأثر بحالة القلق والخوف، لكنه أوحى إليها بأنه مريض، وأن صحته اعتلت من الصراخ والركض ليس إلا.

أوى إلى فراشه والأحلام السيئة تهاجمه طوال الليل، لكن ما جعل فرائصه ترتعد رعبًا، هو ما وجده عند استيقاظه في الصباح.

فعند استيقاظه، وجد قطعة مربعة صغيرة من الورق، مثبتة على صدره، طبع عليها بكلمات واضحة:

«تسعة وعشرون يومًا لكي تقرر، ثم...».

كان هذا أكثر من احتماله، كيف دخلت هذه الورقة إلى غرفة نومه، وعلقت على صدره هكذا؟! الخدم ينامون في مبنى خارجي، والأبواب والنوافذ قد تم تأمينها كلها، فكيف بحق الشيطان وصلت هذه الورقة إلى صدره؟!

أخفى الأمر عن ابنته، لكن الحادثة ضربت قلبه وهزت ثقته وأمانه. كان من الواضح أن تسعة وعشرين يومًا كانت المتبقية من رصيد الشهر الذي منحه يونج له ولابنته، كي يقررا. وراح عقله يضرب رأسه حتى كاد يجن، ما هي القوة أو الشجاعة التي يمكن الاستفادة منها ضد عدو مسلح بمثل هذه القوى الغامضة؟ اليد التي ثبتت هذا الدبوس ربما أصابته مباشرة بطعنة في القلب، ولكان مقتولاً الآن من دون أن يعرف أحد مَن قتله!

كان لا يزال مشوشًا مضطربًا حتى في اليوم التالي -على الرغم من عدم وجود أوراق على صدره- لكنهما عندما جلسا لتناول الإفطار، صاحت لوسي وهي ترفع رأسها نحو السقف. في وسط السقف كان مكتوبًا بما يشبه الحروف المحترقة ٢٨.

كان الأمر غير واضح لها، وعندما سألته نهرها وطلب منها إكمال إفطارها في صمت، وفي تلك الليلة، جلس بسلاحه مستيقظًا، وراح يجوب المزرعة هو والخدم حتى بدأ نور الصباح يتخلل الأجواء، إلا أنه ما إن عاد متعبًا إلى البيت، حتى وجد رقم ٢٧ قد حفر بنصل ما على باب المنزل!

هكذا يومًا بعد يوم، يجد رقمًا متناقصًا في مكان ما، في بعض الأحيان تظهر الأرقام المميتة على الجدران، أحيانًا على الأرضيات، وأحيانًا تكون على لوحات صغيرة معلقة عند بوابة الحديقة أو السور. مع كل يقظته وحواسه التي اكتسبها من امتهانه الصيد لسنوات، لم يستطع جون فيرير أن يكتشف كيف تصل هذه التحذيرات اليومية إلى منزله أو مزرعته. كان الرعب قد تملك من الفتاة ومنه، وتحول وجهه إلى وجه نسر صحراوي بائس، الخرافات بدأت تغزو عقله عن أعدائه غير المرئيين، وقدراتهم الخارقة، إلا أن أمله الوحيد ما زال يملأ قلبه، وصول الصياد الشاب من نيفادا.

عشرون تقل إلى خمسة عشر، وخمسة عشر إلى عشرة، ولا أخبار عن جيفرسون هوب.

تضاءل الرقم المرة تلو الأخرى، ولا توجد أي إشارة إليه، كلما سمع صوت حصان على الطريق، أو صاح أحد السائقين في خدمه، سارع المزارع القديم إلى البوابة، ظانًّا أن المساعدة قد وصلت أخيرًا، لكنه عندما رأى خمسة تفسح المجال لأربعة، وأربعة تترك المكان لثلاثة، فقد قلبه الأمل تمامًا.

كان وحيدًا عجوزًا هو وابنته المراهقة، ومع معرفته المحدودة بالجبال التي تحيط بالمستوطنة، عرف أنه لا حول له ولا قوة. ثم إن الطرق التي قد يسلكها مراقبة بحراسة مشددة، ولا يمكن لأي أحد المرور منها من دون أمر من المجلس، ومع ذلك، فإن الرجل العجوز لم يتردد في قراره لحظة، إن الموت أحب إليه من أن يوافق على تزويج ابنته بأي من هؤلاء الشياطين.

كان يجلس وحيدًا في إحدى الأمسيات يتأمل بعمق في مشكلاته، لقد ظهر رقم اثنين صباح اليوم، والغد سيكون آخر يوم من المهلة المحددة. ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ ملأت الأفكار المبهمة والمخيفة خياله. ابنته المسكينة، ماذا سيحدث لها بعد أن يتخلصوا منه؟ ملأته الأفكار همًّا فدفن رأسه بين كفيه، وكاد يبكي من العجز.

ماذا كان هذا؟ في الصمت سمع صوت خدش لطيفًا منخفضًا، ولكنه ملحوظ جدًّا في هدوء الليل. جاء من باب المنزل. تسلل فيرير إلى غرفة الاستقبال واستمع باهتمام، توقف الصوت لبضع لحظات، ثم تكرر الصوت من جديد.

كان من الواضح أن أحدهم كان ينقر بلطف على الباب. هل هذا قاتل في منتصف الليل، جاء لتنفيذ الأوامر القاتلة للمحكمة السرية؟ أم أن هناك أحدهم ينقش ما يقرر أن آخر يوم من المهلة قد حان.

شعر جون فيرير أن الموت الفوري سيكون أفضل من هذا الانتظار الذي يحرق أعصابه. تقدم إلى الأمام، وفتح الباب بسرعة وعنف، لكنه حدق إلى الخارج بدهشة، كل شيء كان هادئًا، كل شيء على ما يرام، وكانت النجوم متلألئة في السماء التي بدأت تمتلئ بغيمات قليلة، الرياح تهب بلطف على وجهه، ولا يوجد على الطريق أي إنسان يمكن أن يراه.

تنفس فيرير الصعداء وهو ينظر يمينًا ويسارًا، ربما كان سنجابًا أو أحد الزواحف تبحث عن طعام، لكنه ما إن نظر أسفل عند قدميه، حتى رأى رجلاً مستلقيًا على وجهه فوق الأرضية الخشبية!

كان الرجل منبطحًا كالزواحف، وما إن رآه فيرير حتى حاول إمساكه، كان يظنه جريحًا أو ميتًا، لكنه ما إن لمسه حتى زحف الجسد بسرعة نحو قاعة الجلوس، تبعه فيرير غاضبًا، سوف يقتله أو يقتل لا محالة.

لكن الرجل انتصب على قدميه ودفع فيرير إلى الأمام، ثم أغلق الباب وكشف لثام وجهه.

إنه جيفرسون هوب!

«يا إله السماوات»، صرخ فيرير مندهشًا، «لقد أخفتني أيها الشاب، كيف أتيت إلى هنا بهذه الطريقة؟».

«أريد طعامًا، أنا جائع»، قالها المنقذ الشاب بصوت خافت، «لم يكن لدي أي وقت للأكل أو الشرب أو الراحة، لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة». وما إن وجد الطعام على المائدة متبقيًا من عشاء مضيفه، حتى ألقى بنفسه على الطاولة يأكل في نهم، «كيف حال لوسي، أهي بخير؟».

أجاب والدها: «نعم. إنها لا تعرف الخطر، لا تعرف أن المهلة قد قاربت على الانتهاء».

«هذا جيد. المنزل مراقب من كل الجوانب، لذلك زحفت في طريقي نحو الباب كالثعابين، قد تكون حواسهم حادة ومراقبتهم محكمة، لكنها ليست كافية للقبض على صياد تماسيح».

شعر جون فيرير بقليل من الاطمئنان الآن، بعد أن أدرك أن لديه حليفًا مخلصًا.

أمسك بيد الشاب، وشد عليها بحرارة قائلاً: «أنت رجل أفتخر به». «ليس هناك الكثير ممن يرغبون في مشاركتنا خطرنا ومشكلاتنا».

أجاب الصياد الشاب: «لدي احترام كبير لك يا سيدي، وربما أفكر مرتين قبل أن أضع رأسي في عش الدبابير، لكن لوسي هنا، وقبل أن يمسها الضرر سيكون جيفرسون هوب ميتًا دفاعًا عنها».

«ماذا سنفعل؟»، قالها والإعجاب يملأ عينيه تجاه الشاب.

«غدًا هو آخر يوم لك، وما لم نتصرف الليلة، فستفقد أي فرصة. لديّ بغل وحصانان في مكان قريب، كم من المال تملك الآن؟».

«معي ألفا دولار من الذهب، وخمسة آلاف من السندات».

«هذا يكفي جدًّا، لدي الكثير الذي يمكن إضافته إليه، والآن علينا أن نرحل إلى كارسون عبر الجبال. من الأفضل أن توقظ لوسي الآن، من الجميل أن الخدم لا ينامون في المنزل».

بينما كان فيرير غائبًا يعد ابنته لرحلة الحرية، جفّف جيفرسون هوب جميع الأطعمة التي يمكن تجفيفها في قطعة صغيرة من القماش، وعبأ جرتين بالماء، لأنه كان يعلم من خلال خبرته أن آبار الجبال قليلة ومتباعدة.

لم يكد يكمل ترتيباته حتى عاد فيرير مع ابنته في ثياب السفر، حياها تحية دافئة قصيرة، إن الدقائق ثمينة للغاية، وهناك الكثير مما ينبغي عمله.

قال جيفرسون هوب متحدثًا بصوت منخفض: «يجب أن نبدأ في الحال، المداخل الأمامية والخلفية مراقبة بحرص، ولكن بحذر قد نهرب من النافذة الجانبية عبر الحقول. وبمجرد الوصول إلى الطريق، سنكون على بعد ميلين فقط من رافين، حيث تنتظرنا الخيول. وخلال ساعات الفجر يجب أن نكون في منتصف الطريق».

«ماذا لو أوقفنا أحدهم؟»، سأل فيرير.

أخرج جيفرسون مسدسه من حزامه، وقال بابتسامة شريرة: «إذا كانوا كثيرين جدًّا بالنسبة إلينا، فإننا على الأقل سوف نأخذ واحدًا أو اثنين منهم معنا إلى الجحيم».

ثم تعاونوا على إطفاء الأنوار داخل المنزل، ومن النافذة المظلمة راح فيرير يراقب الحقول، التي كان على وشك التخلي عنها إلى الأبد. كان قد عرف التضحية لفترة طويلة، وفكرة شرف وسعادة ابنته تفوق أي ندم على ثروته الضائعة.

بدا الحقل مسالمًا وهادئًا، لدرجة أنه كان من الصعب إدراك أن روح القتل تكمن في كل شيء حوله.

حمل فيرير حقيبة من الذهب والأوراق النقدية، وحمل جيفرسون هوب كميات الطعام والماء، في حين كانت لوسي تحمل ربطة من القماش، تحتوي على عدد قليل من ممتلكاتها، فتح جيفرسون النافذة ببطء شديد، وانتظر حتى غممت سحابة مظلمة إلى حد ما في الليل، كان قد حسب الوقت بدقة

ليوم الهروب، السماء سوف تكسوها الغيوم مع ارتفاع سرعة الرياح، لا بد من بعض الانتظار، والآن بعد أن أظلمت السماء قليلاً، بدأ يزحف هو ومرافقاه بحذر، حتى وصلوا إلى الفجوة في حقل الذرة، ثم أشار إليهما فجأة بالتوقف والانبطاح.

العمل في البراري والصحاري القاحلة قد أعطى جيفرسون هوب أذنين حادتين، لذا أشار إليهما بالاختباء أكثر بين عيدان الذرة، عندما سمع صوت بومة جبلية آتيًا من بعيد، يتبعه صوت آخر وصوت ثالث، ثم ظهر رجلان عند الفجوة، ظلان طويلان يتحدثان لبعضهما البعض، على بعد ياردات قليلة من الجمع المختبئ وسط حقول الذرة.

قال الأول الذي بدا أنه الأكثر سلطة: «إلى الغد في منتصف الليل إذًا، ساعتها سيضرب سوط الرب على ظهور البائسين ويعيدهم إلى حظيرته».

«حسنًا»، قال الآخر، «هل أخبر الأخ دربر؟».

«أخبره ودعه يخبر الآخرين، تذكر، تسعة إلى سبعة!».

«سبعة إلى خمسة!»، قالها الرجل الآخر، ثم تفرقا في اتجاهات مختلفة، من الواضح أن كلماتهما الختامية كانت شكلاً من أشكال الإشارات المشفرة، وفي اللحظة التي اختفى فيها الرجلان، قفز جيفرسون هوب على قدميه، وساعد رفيقيه للعبور خلال هذه الفجوة، ثم قادهما في الطرق الوعرة، حتى وصلوا إلى الطريق الذي يقودهم إلى الجبل، وعندما وجد لوسي غير قادرة على المشي، حملها على كتفه وراح يسرع بحمله.

«أسرع! أسرع! أكل شيء يعتمد على السرعة الآن؟».

وبعد لحظات، كانوا على الطريق السريع الذي يؤدي إلى رافين، في إحدى المرات قابلهم شخص يمشي على قدميه، لكنهم اختبأوا متبعين تعليمات هوب وسط بعض الصخور، وعندما وصلوا إلى ذلك الجسر، ومن خلال خبرته، اختار جيفرسون هوب طريقه بين الصخور العظيمة وعلى طول المجرى المائي المجفف، حتى وصلوا إلى تلك الزاوية التي ربط عندها بغلاً وحصانين، وضع الفتاة على البغل، وساعد فيرير ليمتطي واحدًا من الجوادين، مع حقيبته المالية، بينما قاد جيفرسون هوب الجواد الآخر متقدمًا الجمع عبر الطريق الخطر.

كان الطريق صعبًا ووعرًا لأي شخص لم يكن معتادًا على مواجهة الطبيعة، أشجار ميتة ضخمة، وصخور حادة، وجرف مرتفع له قاع مظلم كئيب، ومع ذلك، وعلى الرغم من جميع الأخطار والصعوبات، كانت قلوب الهاربين سعيدة بكل تقدم، فكل خطوة تزيد المسافة بينهم وبين سيطرة المورمون القاتلة.

لكن، سرعان ما كان لديهم دليل على أنهم كانوا لا يزالون ضمن نفوذ القديسين، فقد صرخت لوسي فجأة مع مرأى ظل حارس يقف على صخرة تواجه الجرف، وما إن سمع صرخة الفتاة التي كتمها أبوها بيده، حتى نظر نحو الجمع، وصرخ قائلاً: «من هناك؟».

قال جيفرسون هوب، وهو يضع يده على البندقية التي علقت بسرجه: «مسافرون إلى نيفادا».

«بإذن من؟»، سأل الحارس.

أجاب فيرير: «الأربعة المقدسون». لقد علمته تجاربه المورمونية أن هذه هي أعلى سلطة يمكن الرجوع إليها.

«تسعة إلى سبعة»، صرخ بها الحارس عاليًا.

«سبعة إلى خمسة»، رد جيفرسون هوب على الفور، متذكرًا الكلمات التي سمعها في الحقل.

صمت عظيم خيم على الأجواء، حتى إن دقات قلب لوسي كان سماعها ممكنًا في هذا الصمت!

ثم قال الصوت من فوق الصخرة: «اعبر والرب معك، ويرعاك مقدسوه».

زفر فيرير بينما كادت لوسي يغمي عليها من الفرحة، بينما أشار إليهم جيفرسون في حزم كي يتحركوا بسرعة خلفه.

وبعد لحظات، التفت المزارع والصياد العجوز إلى الوراء، وعلى وجههما ابتسامة واسعة.

جيفرسون هوب قادهما إلى الحرية.

الفصل الخامس

ملائـكة الانتــقام

طوال الليل، اتخذوا مسارهم من خلال عوائق متعددة، وفي مسارات غير منتظمة ومكسوة بالصخور. أكثر من مرة فقدوا طريقهم، لكن معرفة هوب العميقة بالجبال مكنتهم من استعادة المسار الصحيح مرة أخرى.

عندما جاء الصباح، كان هناك مشهد رائع، على الرغم من الجبال الموحشة. في كل اتجاه كانت القمم الكبيرة المغطاة بالثلوج تطوقهم، وعندما كانت الشمس ترتفع ببطء فوق الأفق الشرقي، مضيئة قمم الجبال العظيمة الواحدة تلو الأخرى، مثل المصابيح في الكرنفالات، شجع المشهد الرائع قلوب الهاربين الثلاثة، وأعطاهم طاقة جديدة.

في أحد أطراف البرية توقفوا، لسقي الخيول والراحة، والمشاركة في وجبة فطور سريعة، كانت لوسي ووالدها يحتاجان إلى الراحة لفترة أطول، لكن جيفرسون هوب كان لا يرحم. وقال: «سيكونون على أول الطريق في هذا الوقت، إن كل شيء يعتمد على سرعتنا. وبمجرد أن يصير الوضع آمنًا في كارسون، سنستريح لبقية حياتنا».

خلال ذلك اليوم، تواصل نضالهم خلال المنحدرات، وفي المساء حسب هوب أنهم كانوا على بعد أكثر من ثلاثين ميلاً من أعدائهم. في الليل، اختاروا قاعدة صخرة عملاقة، حيث قدمت الصخور بعض الحماية من الرياح الباردة، وهناك، متجمعين معًا للدفء، استمتعوا بالنوم بضع ساعات قليلة، لكنهم قبل الفجر، ومع قلة ساعات النوم، كانوا في طريقهم مرة أخرى. لم يروا أي علامة على وجود أي مطارد، وبدأ جيفرسون هوب التفكير في أنهم بعيدون عن متناول المنظمة الرهيبة، التي يكتسبون عداوتها مع كل ميل قطعوه.

في منتصف اليوم الثاني من رحلتهم، بدأ مخزون المواد ينفد، ما جعل الصياد الشاب يشعر بقليل من القلق؛ لذا فقد أضرم لهم بعض النيران للدفء من فروع الأشجار الجافة، ثم حمل بندقيته على كتفه، وخرج بحثًا عن أي فرصة صيد في طريقه. ينظر إلى الوراء، ويرى الرجل العجوز والفتاة الجالسة بجوار النار المشتعلة، والخيل التي وقفت بلا حراك في الخلفية، ثم أخفته الصخور المتداخلة عن مجال الرؤية.

مشى لبضعة أميال من خلال وادٍ تلو الآخر دون نجاح، على الرغم من ذلك. من العلامات على لحاء الأشجار، ومؤشرات أخرى، عرف أن هناك العديد من الدببة في المنطقة المجاورة. في النهاية، بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من البحث العقيم، كان يفكر في العودة إلى المعسكر الصغير، لكنه عندما رفع عينيه للأعلى، رأى منظرًا يبعث البهجة في قلبه، فعلى حافة قمة جبلية، ثلاثمئة أو أربعمئة قدم فوقه، كان هناك مخلوق يشبه إلى حد ما خروفًا في المظهر، ولكنه مسلح بزوج من القرون الضخمة.

كان القرن الكبير -هذا الحيوان يسمى كذلك- يتصرف، على الأرجح، كوصي على رعية غير مرئية للصياد، ولكن لحسن الحظ كان يتحرك في الاتجاه المعاكس، ولم ينظر إليه، لم يلاحظ وجود جيفرسون، لأنه كان مستلقيًا على وجهه، ثم أراح بندقيته على الصخرة، واتخذ وضعية التصويب، وعندما ضغط إصبعه الزناد، اختل توازن الحيوان الضخم، ثم طار في الهواء، وهو يرتجف للحظة على حافة الهاوية، ثم ينهار في الوادي تحتها.

كان المخلوق ثقيلا جدًّا، لذلك باشر جيفرسون قطعه إلى أجزاء، وحمل على كتفه فخذ الحيوان، على أن يعود في المساء لحمل الباقي، وبدأ رحلة عودته، قبل أن يدرك الصعوبة التي واجهته. في أثناء بحثه كان قد تجول في الوديان التي كانت معروفة له، ولم يكن من السهل تعرف الطريق الذي سلكه. الوادي الذي وجد نفسه فيه كان مقسّمًا إلى العديد من الأودية التي كانت تشبه بعضها، لدرجة أنه كان من المستحيل تمييز أحدها عن الأخرى. تبع مجرى الوادي الجاف لميل واحد أو أكثر، حتى وصل إلى سيل الجبل الذي كان على يقين بأنه لم يره من قبل. واقتناعًا منه بأنه قد اتخذ منعطفًا خاطئًا، حاول مرة أخرى، ولكن بالنتيجة نفسها، كانت الظلمة مقبلة بسرعة، والسماء مظلمة تقريبًا، قبل أن يجد نفسه في النهاية في حالة إعياء من كثرة المسير، لذا قرر الجلوس وانتظار القمر، حتى يستطيع تعرف المسارات والمنحدرات التي سلكها، ربما يمنحه القمر قليلاً من الضوء.

لكنه في النهاية وصل إلى قلب تلك الصخرة الضخمة التي تعرفها من بعيد، فأصدر صرخة فرحة، كي يعرفا أنه عاد ومعه الطعام بعد خمس ساعات من الغياب، وبينما ينتظر الحصول على إجابة، لم يجبه سوى صدى صرخته، التي جابت الوديان وتكررت مئات المرات، مرة أخرى صاح، بصوت أعلى من ذي قبل، ومرة أخرى لم يجبه أي صوت من صديقيه اللذين غادرهما منذ فترة، فركض نحو الصخرة حتى إنه أسقط الفخذ، والخوف يغزو حشا قلبه الشاب.

عندما دار حول الصخرة كانت بقايا النار تتوهج وسط الرماد، بينما لم يكن هناك كائن حي بالقرب من بقايا النار. البغل والحصانان والفتاة وأبوها، كلهم قد اختفوا، كان من الواضح جدًّا أن الكارثة المفاجئة قد حدثت في أثناء غيابه، كارثة ضربتهم جميعًا، ولم تترك وراءها أي آثار.

تجمدت ساقا جيفرسون هوب من الصدمة، وشعر كأن حجارة الجبل كلها توشك أن تسقط فوق رأسه، حتى كاد يسقط من هول المفاجأة، فاستند إلى بندقيته، علّها تمنحه بعض الثبات. وقف يراقب الموقف لوهلة، ثم بدأ في التحرك، كان في الأساس رجلاً عمليًّا يحكمه عقله، لذا تعافى بسرعة من دواره المؤقت، وحمل قطعة خشب بها بقايا نار، ورا يجوب بها أجزاء المعسكر الصغير، كانت الأرض كلها مختومة بأقدام الخيول، ما يدل على أن مجموعة كبيرة من الرجال قد عثرت على الهاربين، وعندما فحص اتجاه خطوات الخيل، عرف أن اتجاه مساراتهم يشير بوضوح إلى أنهم عادوا في اتجاه سولت ليك.

هل قاموا بنقل كل من رفيقيه معهم؟ هل قبضوا على العجوز والفتاة ونقلوهما للمحاكمة؟ تراخى جسده مؤمنًا بأن هذا ما حدث، عندما سقطت عيناه على جسم ما جعل كل عصب في جسده يشعر بالارتباك، كومة من التربة المليئة بالاحمرار لم تكن موجودة من قبل، عندها عرف جيفرسون أن قبرًا حفر حديثًا في هذا المكان.

نهض ماشيًا على قدمين متخاذلتين نحو الموقع، وعندما اقترب، رأى العصا التي زرعت فوق كومة التراب، ولاحظ وجود ورقة معلقة في الفراغ المشقوق في الفرع الخشبي الجاف.

جون فيرير

سابقًا من سولت ليك سيتي

توفي في الرابع من أغسطس، ١٨٦٠

موجز، وصريح، وواضح!

رحل العجوز المسكين، رحل عن العالم الذي حاول مقاومته، قتله السفلة الوضعاء، عندها ارتجف قلب جيفرسون وبدأ بحثًا محمومًا، ليكتشف ما إن كان هناك قبر ثانٍ، ولكن لم تكن هناك أي علامة على ذلك، لذا استنتج أنه تمت إعادة لوسي من قبل مطارديها، لتلاقي مصيرها الأصلي، سوف تصير واحدة من حريم ابن المقدس، وهنا شعر بالعجز واليأس يغزوان قلبه الشاب.

لكن، مع هبة الريح المفاجئة على وجهه، أدرك جيفرسون هوب أنه قد فقد نفسه إلى الأبد، لم يكن هناك شيء آخر يتبقى له، لكنه على الأقل سوف يكرس حياته للانتقام، قليل من الصبر والمثابرة، ورغبة الانتقام المتواصل -والتي ربما تعلمها من الهنود- سوف ينتقم للعجوز المسكين، وفتاته المسلوبة، إنه الشيء الوحيد الذي يمكن أن يخفف من حزنه، الانتقام الكامل والشامل.

بوجه صارم شاحب، قام بتتبع خطواته إلى حيث أسقط الطعام، وبعد أن أضرم النار من جديد، طبخ ما يكفي من طعام يبقيه حيًّا لبضعة أيام، ثم حمل حزمته على كتفه، وشعلة نار في يده، ومشى متتبعًا مسارهم، مسار الملائكة المنتقمين.

وطوال خمسة أيام، كان يمشي متتبعًا مسار الخيل، ويأوي إلى النوم لساعات قليلة، ثم يكمل مسيره، حتى وصل في اليوم السادس إلى المكان الذي بدأوا منه رحلتهم المنكوبة، حيث تقبع المدينة تحتهم، عندما نظر إليها، لاحظ وجود أعلام في بعض الشوارع الرئيسية، وعلامات أخرى على الاحتفالات. كان لا يزال يتكهن بما قد يعنيه هذا، عندما سمع صوت حوافر حصان خلفه، وعندما استدار ونهض، رأى ذلك الرجل المدعو كاوبر، مورموني كان قد تعاون معه في تجارة سابقة، فاقترب منه لربما عرف أي شيء عن مصير لوسي المسكينة.

«أنا جيفرسون هوب». «أنت تتذكرني، أليس كذلك؟».

نظر إليه المورمون بدهشة، كان من الصعب تعرفه في منظر هذا الوحش الممزق، مع الوجه الأبيض الشنيع الملطخ بتراب السفر، والعينين الشرستين الباردتين، إنه الصياد الشاب الذي كان يشع تألقًا منذ شهور.

«لا يمكنني الحديث معك، هناك أمر قضائي ضدك من الأربعة المقدسين، أنت مدان بمساعدة المارقين على الهرب».

«لا أخافهم ولا أخاف أمرهم»، قال بجدية. «كاوبر. أستحلفك بكل شيء تحبه للإجابة عن بعض الأسئلة. لقد كنا دائمًا صديقين، لا ترفض الإجابة، أرجوك».

«ماذا تريد، كن سريعًا. الصخور لها آذان والأشجار لها أعين».

«ما الذي حل بلوسي فيرير؟».

«لقد تزوجت أمس بابن دربر، اصمد يا رجل وارحل من هنا، لم تعد لك حياة في هذا المكان».

«اعذرني على إعادة سؤالي، ربما أصابني الصمم»، قالها هوب وشفتاه جافتان مبيضتان، «أنت تقول إنها تزوجت، صحيح؟».

«تزوجت أمس، ولذلك يعلقون تلك الأعلام، كانت هناك بعض اللكمات والمعارك بين دربر الابن وستانجرسون الابن، وصلت إلى أن دربر أطلق النار على والد ستانجرسون، ولكن لأنه الأغنى والأقوى الآن، فقد استجاب المبشر لطلبه، وفضله على ستانجرسون، والآن أرجوك، اتركني وارحل».

«بالطبع سوف أرحل»، نهض من جلسته، ووجهه كأنما صنع من الرخام وعيناه تلمعان بضوء شرس خفيف، بينما روحه تتنازعها شياطين الجحيم.

«إلى أين تذهب؟».

«لا يهم»، أجاب جيفرسون وهو يرفع سلاحه فوق كتفه، ثم تحرك ناحية الجبال، إلى البرية وإلى الضواري والحيوانات الجارحة.

لكن أيًّا منها لم يكن في شراسة ووحشية جيفرسون هوب.

وكما توقع الجميع، في ليلة من الليالي القريبة، وبعد مرور شهرين فقط، رحلت لوسي فيرير، ماتت الزهرة المسكينة بعد أن ذبلت في بستان إينوخ دربر، ووسط زوجاته السبع.

في يوم وفاتها، اصطحبتها زوجات الوغد الذي تزوجته إلى قبة الصلاة، حسب العرف المورموني، لقضاء الليل معها، وعندما اجتمعت عائلة دربر حول القبة في الساعات الأولى من الصباح، ولشدة دهشتهم، فتح باب غرفة الصلاة، ودخل رجل متوحش في ثياب ممزقة إلى الغرفة.

من دون إلقاء نظرة، أو كلمة، على أحد من المرعوبين من منظره، سار إلى الجثة الصامتة البيضاء، التي احتوت ذات مرة على الروح النقية للوسي فيرير، ثم انحنى فوقها، وضغط بشفتيه جبهتها الباردة، ثم خطف يدها، وأخذ خاتم الزواج من إصبعها.

«لوسي فيرير لا تدفن مرتدية هذا»، صرخ بضراوة شرسة، كأنه دب صحراوي مفترس، وقبل أن ينطلق أي إنذار أو صرخة منهم، كان قد اختفى وذهب من دون أثر، ولولا أن الخاتم الذهبي قد اختفى، لكانت عائلة دربر قد اتهموا بالجنون أو الاختلال عندما حكوا قصتهم تلك.

ظل جيفرسون هوب يجوب الجبال والصحاري حول سولت ليك سيتي، تنتشر أخباره وأساطيره، وعندما اختفى لأيام كثيرة، ظن الكثيرون أن نار انتقامه قد بردت، لكن رصاصة استقرت في الحائط بجوار رأس ستانجرسون، وكادت تقتله لولا أن رأسه تحرك قليلاً، وحجرًا سقط من الجبل فوق رأس دربر نجا منه بأعجوبة، ما ذكّر الجميع بأن جيفرسون هوب في الجوار.

ظل جيفرسون هوب يحوم حول دربر، لم يمنعه حرص الأخير على حياته وحراسته المشددة، لم يمنعه حتى ذلك الأمر القضائي الذي استصدره دربر ضده، والذي يجرمه إذا اقترب منه أو فكر في الاعتداء عليه.

ظل جيفرسون رابضًا، مراقبًا، ينتظر فرصته للانتقام من قاتلي الملاك الطاهر، وأبيها المسكين، حتى عندما عرف أن دربر صفى أملاك أبيه، وعيّن ستانجرسون سكرتيرًا له، حتى عندما عرف أنه انتقل إلى أوروبا بحثًا عن فرص التجارة والمال، ظل يتبعهما إلى آخر الأرض، بحثًا عنهما، حتى وصل إلى لندن..

إلى شارع بيكر..

إلى المنزل الذي كشفه فيه رجل طويل القامة، عيناه تشعان ذكاء وحيوية.

رجل يدعى شيرلوك هولمز.

كما تقول مذكرات الدكتور جون واتسون.

الفصل السادس
عودة إلى مذكرات دكتور جون واتسون

لم تستمر مقاومة أسيرنا الغاضبة، فعندما وجد نفسه عاجزًا، ابتسم بطريقة عاطفية، وأعرب عن أمله أنه لم يؤذ أحدًا منا في المشاجرة، تصرف جنتلمان حقيقي!

«أظن أنك ستأخذني إلى مركز الشرطة»، أشار إلى شيرلوك هولمز. «هناك عربة أجرة عند الباب. إذا كنت ستحرر قدمي، فسوف أسير إليها طوعًا، أنا لست خفيفًا للغاية كي ترفعوني إليها».

تبادل جريجسون ولستراد النظرات، هذا الاقتراح جريء وغير مأمون، لكن هولمز قبِل اقتراح السجين المتهم، وخفف من ربطة الشال الذي ربطناه حول كاحليه، فمدد ساقيه وعلى وجهه ابتسامة شعوره بالحرية، لم أتذكر أنني رأيت في حياتي من يماثله قوة وعنفوانًا، وجه صنعته الشمس والصحارى، وعينان ذكيتان بريقهما يخطف الأبصار.

«حسنًا، سوف أصحبكما أنا والدكتور واتسون، ربما تسعنا العربة جميعًا».

ابتسمت بسرور لم يخفَ على الجميع، ونزلنا معًا.

لم يقم سجيننا بأي محاولة للهروب، لكنه صعد بهدوء إلى عربة الأجرة التي كان يقودها منذ ساعات، وما إن وصلنا إلى مركز الشرطة، حتى دخلنا إلى غرفة صغيرة، حيث أخبر لستراد كبير مفتشي الشرطة باسم أسيرنا الذي وجهت إليه تهمة القتل.

كان كبير المفتشين رجلاً جامدًا غير عاطفي، نفذ واجباته بطريقة مملة وميكانيكية. وقال: «سيُعرض السجين على القضاة خلال هذا الأسبوع، في أثناء هذا، يا سيد جيفرسون هوب، هل لديك أي شيء تريد أن تقوله؟ يجب أن أحذرك من أن كلماتك سيؤخذ بها، ويمكن استخدامها ضدك».

«لدي الكثير لأقوله»، قال سجيننا ببطء. «أريد أن أخبركم أيها السادة بكل شيء».

«ألم يكن من الأفضل إبقاء هذا للمحاكمة؟»، سأل المفتش.

أجاب جيفرسون: «قد لا أحاكم أبدًا، إنه ليس انتحارًا أفكر فيه كما تظنون. هل أنت طبيب؟»، أشار نحوي.

«نعم»، أجبت في هدوء.

«ضع يدك هنا إذًا»، وقال، مع ابتسامة، وهو يوجه إصبعه نحو منطقة في صدره.

فعلت كذلك، شعرت بالمفاجأة من الخفقان والاضطراب الاستثنائي الذي كان يجري في الداخل. بدت جدران صدره مضطربة ومهتزة، سمعت بأذني أسوأ محرك خرب، يدور في داخل تلك الحاوية التي يمكن أن نسميها مجازًا بالصدر.

«لديك تمدد في الأورطي!»، قلتها في هدوء وأسف.

قال بهدوء: «هذا ما يطلقونه على تلك الأمور التي تدور في صدري، لقد ذهبت إلى طبيب في الأسبوع الماضي بسبب هذا الأمر، وأخبرني أنه من المحتم أن تنفجر شراييني، قبل مرور عدة أيام. لقد تفاقمت الأمور لسنوات، لقد أصبت به من الحياة القاسية بين جبال سولت ليك».

ثم أغمض عينيه، وقال في هدوء: «لقد أتممت عملي الآن، ولا يهمني متى سأذهب، لكني أود أن أترك بعض المعلومات عن أعمالي، أود أن يذكرها الجميع، ليس كجريمة قتل عارضة، ولكن كعمل أفتخر به».

أجرى كبير المفتشين، والمفتشان لستراد وجريجسون، نقاشًا مستعجلاً عما إذا كان من الممكن السماح له برواية قصته.

«دكتور واتسون، هل هناك خطر على حياته فعلاً؟»، سألني كبير المفتشين.

«بالتأكيد هناك خطر واضح»، أجبت.

«في هذه الحالة من الواضح لدينا أننا يجب أن نأخذ إفادته»، قالها كبير المفتشين الجامد، «سيد هوب، تذكر أنك تتخلى عن حق من حقوقك الآن بإعطائنا إفادتك، والتي لا يمكن إلغاؤها لاحقًا، والكذب فيها قد يعني تغليظ العقوبة».

«أنا على حافة القبر، وليس من المحتمل أن أكذب عليك. كل كلمة أقولها هي الحقيقة المطلقة، أما كيف تستخدمها فهي مسألة لا تهمني».

بهذه الكلمات، انحنى جيفرسون هوب مرة أخرى، وجلس على كرسيه وبدأ يدلي بإفادته، تحدث بطريقة هادئة ومنهجية، كما لو أن الأحداث التي روى عنها كانت عادية بما فيه الكفاية. يمكنني أن أؤكد دقة ما قاله وما نقلته عنه، لأنني اطلعت عليه من دفتر ملاحظات لستراد، والذي أثق أنه دوّن كلمات السجين كلها بالكامل.

وبعد أن انتهى قال متابعًا: «لا يهم كثيرًا لماذا كرهت هذين الرجلين». «يكفي أن يكونا مذنبين بقتل شخصين -أب وابنة- وبعد مرور الوقت الذي مر على جريمتهما، كان من المستحيل بالنسبة إليّ ضمان إدانة ضدهما في أي محكمة، لكنني أعرف ذنبهما، وقررت أنني يجب أن أكون قاضيًا، ولجنة محلفين، وجلادًا منفذًا، كل ما فعلته كان سيفعله أي منكم لو كان في مكاني، لو كان يمتلك الرجولة الكافية لتحقيق العدالة الناجزة».

راح يتنفس بصعوبة من فرط توتره، وعندما حاولت أن أقنعهم بتركه يستريح، اعترضني هولمز بكفه في هدوء، بينما قال جيفرسون هوب متابعًا:

«تلك الفتاة التي تحدثت عنها، كادت تكون زوجتي منذ عشرين سنة. لقد أُجبِرَت على الزواج بدربر، وكسر قلبها وماتت مكلومة، لذا أخذت خاتم الزواج من إصبعها الميت، وتعهدت أمام عينيها المحتضرتين أن تستريح من دون هذا الخاتم، وأن جزاء ذلك الوغد سيكون من جنس إجرامه، لقد حملت الخاتم معي، وتبعته هو وشريكه في قارتين، حتى أمسكت بهما، لا يهمني أن أموت في الغد،

كما هو متوقع، فأنا أموت وأنا أعلم أن عملي في هذا العالم قد تم إنجازه، لقد هلك السفلة المجرمون، وأنا انتهيت من مهمتي».

ثم ابتسم وحدق إلى عيني هولمز الجامدتين، وتابع:

«كانا غنيين وأنا فقير للغاية، لذا لم يكن من السهل بالنسبة إليّ أن أتبعهما، عندما وصلت إلى لندن، كان جيبي فارغًا، ووجدت أنني يجب أن أدبر معيشتي بأي شكل، إن ركوب الخيل طبيعي بالنسبة إليّ مثل المشي، لذلك تقدمت بطلب في مكتب عربات الأجرة، وسرعان ما حصلت على وظيفة، على شرط أن أحصل على مبلغ معين من المال أسبوعيًّا وأورده إلى المالك، ثم أحتفظ بالباقي لنفسي».

«لم ينجح الأمر كثيرًا، لكنني تمكنت من توفير المال بطريقة ما، وكانت أصعب مهمة هي التدريب على تنفيذ مهمتي، والتي تبدأ من حفظ طرقات هذه المدينة الأكثر إرباكًا، لكن كانت لدي خريطة بجانبي طوال الوقت، حتى تعلمت كيف أسلك طريقي».

«قضيت بعض الوقت أبحث عن المكان الذي يعيشان فيه، لكنني استفسرت واستفسرت، وبحثت حتى وصلت إليهما. كانا في منزل في كامبرويل، على الجانب الآخر من النهر، وساعتها عرفت أنهما صارا تحت رحمتي، كانت لحيتي قد نمت ولعبت شمس الجبال وطين لندن في ملامح وجهي، لذا لم يكن ممكنًا أن يتعرفا عليّ، كنت أصبر وأصبر، وأخطط حتى أرى فرصتي سانحة أمامي».

«كنت دائمًا في أعقابهما. في بعض الأحيان كنت أتابعهما وأنا على عربة الأجرة، وأحيانًا سيرًا على قدمي، كانا مكررين للغاية على الرغم من ذلك. يجب أن يكونا قد فكرا في أنه ربما يتبعهما أحد، لأنهما لم يخرجا أبدًا فرادى. خلال أسبوعين كنت أقود العربة خلفهما كل يوم، ولم أرَ أيًّا منهما بمفرده، كان دربر مخمورًا نصف الوقت، لكن ستانجرسون لم يكن يغفو أو يلمس الشراب أبدًا، وكنت أشاهدهما في وقت متأخر وباكر، لكني لم أعثر بعد على الوقت المناسب لتنفيذ خطتي».

«أكثر ما كان يخيفني أنني قد لا أجد الوقت، شراييني توشك على الانفجار، إلا أني في النهاية، في إحدى الأمسيات، كنت أقود عربتي في توركاي تراس، عندما رأيت عربة أجرة تصل إلى باب المنزل الذي يقيمان فيه، جلب السائق بعض الأمتعة، وقدرت أنهما سوف يفلتان مني من جديد، لذا تتبعت دربر وستانجرسون حتى وصلا إلى المحطة، وفي محطة يوستن خرجا وتركا ولدًا يحمل أمتعتهما إلى الرصيف، سمعتهما يسألان عن قطار ليفربول، والحارس يجيب بأن القطار قد ذهب للتو، ولن يكون هناك قطار آخر لبضع ساعات، ويبدو أن ستانجرسون كان مكتئبًا وغير راضٍ لسماع ذلك، لكن دربر كان سعيدًا. اقتربت منهما في وسط زحام المحطة، لدرجة أنني تمكنت من سماع كل كلمة دارت بينهما، قال دربر إن لديه القليل من الأعمال الخاصة به، لا بد أن ينهيها، وإنه إذا كان ستانجرسون سينتظره، فإنه سينضم إليه في المحطة قريبًا، لكن ستانجرسون قال إنهما لا بد ألا يفترقا أبدًا، وإن برقية وصلت في الصباح تقول إن الصياد في أوروبا، وربما يكون في لندن، فأجاب دربر بأن المسألة دقيقة وشخصية، وأنه يجب أن يذهب بمفرده. لم أتمكن من التقاط ما قاله ستانجرسون ردًّا على ذلك، ولكن دربر انفجر غاضبًا، وقال إنه ليس أكثر من خادم له، وإنه لن يملي عليه ما يفعله، تغاضى السكرتير عن الوصف الشائن، وطلب منه ببساطة إذا فاته القطار المقبل عليه

أن ينضم إليه في فندق هوليداي، فرد عليه دربر بأنه سيعود إلى المحطة قبل الحادية عشرة، وشق طريقه إلى الخارج».

«اللحظة التي انتظرتها طويلاً قد جاءت أخيرًا. كان تحت رحمتي تمامًا. لقد تمكنا معًا من حماية بعضهما، لكنْ منفردان كانا تحت رحمتي، مع ذلك لم أتصرف بتسرع لا داعي له. خطط الثأر لا تنجح ما لم يكن لدى المنفذ الوقت الكافي لإدراك من هو الذي يهاجمه، ولماذا جاء الانتقام منه، فكانت خطتي قد رتبت من أجل أن أتمكن من جعل الرجل يعرف من أنا، ولماذا أريد الانتقام منه؛ لا بد أن أرى تلك النظرة في عينيه».

«قبل ذلك ببضعة أيام، رجل مهذب، سمسار عقارات على الأرجح، كان ينظر إلى بعض المنازل الخالية في طريق بريكستون، ثم أسقط مفتاح إحداها في عربتي، في المساء نفسه عاد بحثًا عنه، ولكن في الفترة الفاصلة، كنت قد صنعت نسخة منه، ومن خلال هذا، تمكنت من العثور على المكان الوحيد الخالي من البشر، في هذه المدينة الصاخبة، بقي فقط أن أنفذ الجزء الأصعب، كيف آخذ دربر إلى هذا البيت؟».

«مشى على قدميه ودخل إلى واحدة أو اثنتين من الحانات، وبقي لنحو نصف ساعة في آخرها. عندما خرج، ترنح في مسيرته، وكان من الواضح أنه كان مخمورًا بشدة، مررنا عبر جسر واترلو، وعبر أميال من الشوارع، ولدهشتي، وجدت أننا مرة أخرى في المنزل نفسه، الذي تركه هو وسكرتيره هذا الصباح، لم أكن أتخيل لماذا قرر العودة إلى هناك، ولكنني ذهبت، وأبقيت عربة الأجرة على بعد ياردات بسيطة من المنزل، أعطني كوبًا من الماء، لو سمحت. يجف ريقي من الحديث».

أحضر له لستراد كوبًا من الماء، جرعه مرة واحدة، ثم قال متابعًا:

«هذا أفضل، حسنًا، لقد انتظرت لمدة ربع ساعة، أو أكثر، عندما سمعت فجأة ضجيجًا من داخل المنزل. في اللحظة التالية كان الباب مفتوحًا وظهر رجلان، أحدهما كان دربر، والآخر كان شابًّا صغيرًا لم أره من قبل، وعندما وصلا إلى الباب، أعطاه دفعة وركلة أرسلتاه على وجهه عبر الطريق، وصرخ مهددًا: سأعلمك كيف يرد الرجال على إهانة فتاة شريفة».

«كان محتدًّا جدًّا، لدرجة أنني كنت أعتقد أنه سيقتل دربر، من كثرة الكراهية التي تقفز من كلامه، إلا أن الوغد كان لا يزال بصحته، وسريعًا للغاية، لذا تحركت قاطعًا طريقه وهو يركض، إن اللحظة المناسبة حصلت بلا تخطيط مني أبدًا، ساعتها كأنه غريق تعلق بقشة، صرخ فيّ أن آخذه إلى فندق هوليداي فورًا».

«عندما قفز داخل مقصورة عربتي، قفز قلبي راقصًا بفرح شديد، لدرجة أنني خشيت أن يخذلني في مهمتي، اتخذت بعض الممرات المهجورة حذرًا من أن يراقبنا أحد، صرخ فيّ وطلب أن آخذه إلى إحدى الحانات القريبة، وأن أنتظره، بقي قليلاً وخرج سكرانَ بلا أي وعي، وطلب مني أن آخذه إلى الفندق من أقصر طريق، لأنه ليس على ما يرام».

«لا تتصور يا سيدي أنني كنت أعتزم أن أقتله بدم بارد، كان الأمر ليكون مجرد عدالة صارمة لو فعلت ذلك، ثم قررت أنه يجب عليّ أن أقتله برحمة وبلا ألم، أنا أريد العدالة لا التعذيب، لذا قررت استغلال ما فعلته طوال أيام تجوالي خلفهما في الولايات، مرة كنت أحضر في أحد فصول علم السموم، وعرض المدرس على طلابه بعض القلويد، كما أسماه، والذي كان قد استخرجه من بعض نباتات السموم في أمريكا الجنوبية. كان قويًّا لدرجة أن أقل جرعة من الحبوب كانت تعني الموت الفوري، راقبت الزجاجة التي تم حفظ هذا المحلول فيها، وعندما ذهب الجميع، تسللت وأخذت القليل منها، لقد أمضيت فترة لا بأس بها أتعلم كيف أصنع الحبوب التي يمكنها أن تذوب في الماء بلا أثر، ووضعت كل حبة دواء في علبة بها حبة مماثلة مصنوعة بلا سم. في ذلك الوقت، عندما كانت لدي فرصة لاستخراج الحبوب بلا وعي منه وإذابتها، لكنه لم يكن بعد يعرف من أنا، لا بد أن يكتمل انتقامي أمام عينيه الملتاعتين، لا بد أن يصرخ كالخنازير وأنا أقتله».

«كانت الساعة تقارب منتصف الليل، والليلة ممطرة قاتمة، تهب الرياح بشدة وتهطل الأمطار بغزارة، ليلة كئيبة في الخارج، لكني كنت سعيدًا في الداخل، سعيدًا لأنني قاربت على إنهاء مهمتي التي أتوق إليها منذ عشرين عامًا، أشعلت السيجار، ورحت أنفخ دخانه لتهدئة أعصابي، ولكن يدي كانت ترتجف عندما كنت أقود من فرط الإثارة، كنت أرى جون فيرير العجوز، والجميلة لوسي، ينظران إليّ من الظلام ويبتسمان، تمامًا كما أراكم في هذه القاعة، حتى اقتربت من ذلك المنزل في بريكستون».

«لم يكن هناك أحد في مجال البصر، ولا صوت مسموع واحد، باستثناء صوت هطول المطر. عندما نظرت إلى المقصورة خلفي، وجدت دربر مخمورًا بشدة، ولا يقوى على الحركة، نزلت نحوه وهززته من يديه في عنف وقلت: هيا، لقد حان وقت المغادرة.

قال بلا حروف مفهومة من فرط السكر: نعم، معك حق أيها السائق.

اعتقد دربر أننا وصلنا إلى الفندق الذي ذكره، لأنه خرج من دون كلمة أخرى، ومشى بجواري، كان عليّ أن أسير بجانبه لإبقائه ثابتًا، لأنه كان لا يزال مترنحًا. عندما وصلنا إلى الباب، فتحته، وقدته إلى الغرفة الأمامية، وفي أثناء ذلك، كان الأب والابنة معي طوال الوقت، يراقبانني في رضا.

- لماذا الفندق مظلم بهذه الطريقة؟

قالها بلسان ثقيل.

قلت: سأعطيك ضوءًا الآن. سنشعل هذه الشمعة بهدوء ونمنحك بعض الضوء، والآن يا إينوخ دربر، هل تعرف من أنا؟

كان يحدق إلى وجهي بعينين مخمورتين ومضللتين، ثم رأيت رعبًا ينبثق فيهما، رعبًا بلا حدود، رعبًا حيوانيًّا مطبقًا، ما أظهر لي أنه عرفني، ورأيت العرق يسيل على جبينه، بينما كانت أسنانه تصطك من الخوف، ضحكت على المنظر بصوت عالٍ وطويل، كنت أعلم دومًا أن الانتقام سيكون حلوًا ممتعًا، لكنني لم أكن أبدًا أدرك أنني سأشعر بهذا الرضا.

قلت في سخرية: يا بن الشياطين! لقد اتبعتك من سولت ليك سيتي إلى سانت بطرسبورج، ثم إلى كوبنهاجن ثم إلى هنا، والآن، أخيرًا وصلت رحلاتك إلى نهايتها، إما أنت وإما أنا، أحدنا لن يرى شروق الشمس في الغد.

صرخت وأنا أغلق الباب: ما رأيك في لوسي فيرير الآن؟ لقد كان العقاب بطيئًا وأخذ وقتًا، ولكنه سيصلك كاملاً في النهاية.

رأيت شفتيه الجبانتين ترتجفان بينما كنت أتحدث، كان يتوسل لحياته، لكنه كان يعلم جيدًا أن توسلاته غير مجدية.

سألني والخمر تغيب إدراكه: هل سترتكب الجريمة وتقتلني الآن؟

أجبته: لا توجد جريمة هنا، وهل قتل الكلب المسعور جريمة؟ أين كانت الرحمة عندما قتلت المسكين، وجررت الفتاة لتلقيها وسط حريمك بكل وقاحة يا ملعون؟

فصرخ قائلاً: لم أكن أنا من قتل أباها، ستانجرسون فعلها.

صرخت غاضبًا: لكنك أنت الذي حطم قلبها البريء.

ثم أخرجت صندوق الحبوب ورفعته أمامه: سأدع الرب يحكم بيننا الآن، في إحدى هذه الحبوب توجد الحياة، وفي الأخرى يوجد الموت، دعنا نجرب العدالة الحقيقية الآن، أنت ستأخذ واحدة وأنا الأخرى.

بدأت الدماء تنساب من أنفي من كثرة العصبية والغضب».

«ابتعد عني وهو يصرخ من أجل الرحمة، لكنني أخرجت السكين من جيبي، ووضعته على حنجرته حتى أطاعني، ابتلع القرص وابتلعت أنا الآخر، ووقفنا في مواجهة بعضنا البعض في صمت، لمدة دقيقة أو أكثر، في انتظار لنرى من سيعيش، ومن سيموت، لا أنسى تعابير وجهه عندما عرف أن السم الآن يجري في دمائه، ضحكت عندما رأيته يتلوى من الألم، وأخرجت خاتم زواج لوسي أمام عينيه، ولكن للحظة، لأن تأثير السم سريع للغاية، فقد سقط على الأرض كالحمار الميت، فوضعت يدي على قلبه، وتأكدت من أن قلبه قد توقف تمامًا».

«كان الدم يتدفق من أنفي، لكني لم أنتبه له. لا أعرف لماذا جاءت في رأسي فكرة الكتابة على الحائط بدمي. ربما كانت فكرة جميلة، تحرك الشرطة في مسار خاطئ، وتذكرت وجود جثة ألماني في نيويورك مع كتاب RACHE فوقه، وقد قيل في ذلك الوقت في الصحف إن الجمعيات السياسية السرية قد فعلت ذلك. خمنت أن ما حير سكان نيويورك سيحير أهل لندن، لذا غطست إصبعي في دمي، وطبعت الحروف في مكان ما على الحائط، ثم توجهت إلى العربة، ووجدت أنه لا يوجد أحد، كان الليل لا يزال شديد البرودة، لقد كنت أقود العربة مبتعدًا عن بريكستون حتى تذكرت، وضعت يدي في الجيب الذي احتفظت فيه عادة بخاتم لوسي، ووجدت أنه لم يكن موجودًا هناك، شعرت بالغم والحزن، لأنه كان تذكارًا وحيدًا من لوسي العزيزة، أعتقد أنني أسقطته عندما انحنيت فوق جسد دربر، لذا تركت عربة الأجرة في شارع جانبي، وذهبت بجرأة وهدوء إلى المنزل، لأنني كنت

مستعدًّا لتحمل أي شيء، بدلاً من فقدان الخاتم، وعندما وصلت إلى هناك، وحاولت دخول المكان، وجدت ضابط الشرطة، فتظاهرت بأنني مخمور، وسقطت بين ذراعيه كي يتركني ولا يشك فيّ».

«هكذا انتهيت من أمر إينوخ دربر، كل ما كان عليّ القيام به هو أن أنتهي من ستانجرسون، وأجعله يسدد ديون جون فيرير. كنت أعلم أنه كان يقيم في فندق هوليداي، بقيت طوال اليوم أراقبه لكنه لم يخرج أبدًا، كان يشك في شيء ما عندما طالت غيبة دربر، كان ستانجرسون ذكيًّا ويقظًا، وقائما على حراسة دربر المخمور، سرعان ما دققت وبحثت حتى اكتشفت أين تقع نافذة غرفة نومه، وفي الصباح التالي استفدت من بعض السلالم التي تخص عمال الدهانات، والتي كانت ملقاة في الممر خلف الفندق، وهكذا دخلت إلى غرفته في ظلام ما قبل الفجر، أيقظته وأخبرته أن الساعة قد أتت، وأن رد الدين قد حان، ووصفت موت دربر له، وأعطيته الاختيار نفسه من الحبوب السامة، وبدلاً من أن يقدر أنني أعطيته الفرصة للاختيار، قفز من فراشه مهاجمًا إياي، لكني طعنته بالسكين في قلبه، وتركت بدمائه من جديد كلمة RACHE».

«ليس لدي ما أقوله أكثر من ذلك، لقد كنت على وشك الذهاب، كنت أدخر مبلغًا، حتى أتمكن من توفير ما يكفي لإعادتي إلى أمريكا. وعندما كنت أقف في الفناء بمتروبوليس، جاء صبي متشرد، يسأل عن سائق أجرة يدعى جيفرسون هوب، وقال إن عربة الأجرة الخاصة به، مطلوبة من قبل رجل نبيل في ب ٢٢١ شارع بيكر. ذهبت دون أي شك في حدوث أي شيء قد يضر بي، وما حدث بعدها تعرفونه جيدًا، عندما كان هذا السيد هنا يلف السوارَين على معصمي، هذه هي قصتي أيها السادة، قد تعتبرونني قاتلاً، لكن أظن أنني مجرد محقق للعدالة مثلكم تماما».

لقد كانت رواية الرجل وطريقته في حكيها مثيرة للغاية ومؤثرة، لدرجة أننا جلسنا صامتين منصتين. حتى المحققون من سكوتلاند يارد، بدوا مهتمين بشدة بقصة الرجل، وعندما انتهى من حكايته، جلسنا لبعض الدقائق في السكون، الذي كسره فقط خدش قلم لستراد فوق أوراق دفتره، مدونًا آخر كلمات الرجل.

قال شيرلوك هولمز بهدوء: «هناك نقطة واحدة فقط، أود الحصول على مزيد من المعلومات عنها، مَن كان شريكك الذي جاء سعيًا وراء إعلان الخاتم».

غمز جيفرسون وقال ضاحكًا: «رأيت الإعلان الخاص بالطبيب واتسون، واعتقدت أنه قد يكون طعمًا أو يكون الخاتم فعلاً، لذا قمت بنفسي بالتنكر والحضور، حتى أعرف ما كان، وأظن أنك أعجبت بما فعلته يا سيدي».

«لا شك في ذلك»، قال هولمز وابتسامة كبيرة تعلو وجهه.

«الآن، أيها السادة»، قال كبير المفتشين بحزم، «يجب الامتثال للقانون، يوم الخميس سيُحاكم السجين أمام القضاة، وستكون هناك حاجة إلى حضوركم للشهادة»، رن الجرس وهو يتكلم، وجاء زوجان من الحراس يقودان جيفرسون هوب إلى الزنزانة، بينما خرجت أنا وصديقي من المحطة، وأخذنا عربة أجرة إلى شارع بيكر.

سأنتظر منك تفسيرًا يا هولمز، أنتظره بكل حرارة.

الفصل السابع

الاستـنــتــاج

تم إبلاغنا أنا وهولمز للمثول أمام القضاء يوم الخميس؛ ولكن عندما جاء يوم الخميس، لم يسمح لنا بالإدلاء بشهادتنا، استبعد القضاة شهادتنا ورفعت القضية إلى قاضٍ أعلى، وتم استدعاء جيفرسون هوب إلى المحكمة العليا. في الليلة نفسها، انفجرت أوعيته الدموية، وتم العثور عليه في الصباح ممددًا على أرضية الزنزانة، مع ابتسامة هادئة على وجهه، كما لو أنه كان قادرًا في لحظات الموت، على السعادة بما حققه.

«جريجسون ولستراد غاضبان من موته بلا محاكمة»، هذا ما قاله هولمز في أثناء حديثنا مساء اليوم التالي. «أين سيكون إعلانهما الكبير الآن؟».

«أنا لا أرى أن لديهما الكثير لفعله على أي حال».

«السؤال هو، ماذا يمكن أن يجعل الناس يعتقدون أنك قد فعلت شيئًا صحيحًا؟ على كل حال، كان الأمر بسيطًا للغاية، ولم يتعب عقلي كثيرًا».

«بسيط!»، قلت مندهشًا.

قال شيرلوك هولمز وهو يبتسم في وجهي: «بالتأكيد، لا يمكن وصف هذه القضية بأي وصف آخر، والدليل على بساطتها الجوهرية، هو أنه من دون أي مساعدة ـباستثناء بعض المعاونات العادية ـ تمكنت من وضع يدي على المجرم، في غضون ثلاثة أيام».

«هذا صحيح إلى حد ما»، قلتها في هدوء.

«لقد أوضحت لك بالفعل أن ما هو خارج عن المألوف، هو عادة دليل وليس عائقًا في حل قضية من هذا النوع، هل تعرف لماذا لا تستطيع الأغلبية حل قضية من هذا النوع، لأنهم لا يستخدمون التحليل العكسي، في شؤون الحياة اليومية يكون التحليل اللحظي معتادًا، وبالتالي يفكر الجميع فيما هو آتٍ، يفكرون في نتيجة الفعل، وما يترتب عليه من عواقب، ولا يفكرون في تسلسل منطقي للعوامل التي أدت إلى حدوث هذا الفعل من الأساس، هناك خمسون شخصًا يمكنهم تحليل ما يرونه أمامهم، ولكن شخصًا واحدًا فقط يمكنه تحليل ما أدى إلى هذه النتيجة، من خلال ما يراه من معطيات».

«أنا أعترف، لا يمكنني فهم ما تتحدث عنه بشكل تام»، قلت.

«لم أكن أتوقع أن تفعل هذا. دعني أرَ ما إذا كان بوسعي أن أوضح هذا. معظم الناس، إذا وصفت تسلسلاً من الأحداث لهم، سيخبرونك ما هي النتيجة التي ستؤدي إليها هذه الأحداث. يمكنهم وضع هذه الأحداث معًا في عقولهم، وسوف يخبرونك بأن شيئًا ما سيحدث، لكن هناك قلة من الناس،

الذين إذا أخبرتهم نتيجة، سيكونون قادرين على البحث داخل عقولهم عن الخطوات التي أدت إلى تلك النتيجة، هذا هو ما أعنيه عندما قلت لك عن التفسير العكسي، فكر فيما حدث كي تصل إلى ما يحدث».

«الآن أفهم نوعًا»، قلتها بهدوء.

«حسنًا، والآن كانت هناك نتيجة في هذه القضية، لدينا جثة رجل مقتول في ظروف تبدو غريبة، لذا كان عليّ أن أجد الظروف التي أدت إلى حدوث هذه النتيجة، والآن دعني أخبرك عن الخطوات المنطقية التي اتبعتها. في البداية اقتربت من المنزل بشكل خالٍ من أي انطباعات، ومن دون أن أستمع إلى إفادة الشرطة، وبطبيعة الحال بدأت بفحص الطريق، وهناك، كما سبق وشرحت لك، رأيت بوضوح علامات عربة أجرة، تأكدت من خلال البحث من أنها كانت هناك هذه الليلة، كنت متأكدًا من كونها عربة أجرة، وليست عربة خاصة، بواسطة المقياس الضيق للعجلات، فعربات الأجرة تُصنع عجلاتها بسمك أقل من عربات النبلاء والأغنياء».

«كانت هذه هي النقطة الأولى لي. ثم سرت ببطء إلى مدخل مسار الحديقة، الذي يتكون من تربة طينية، مناسبة بشكل خاص لجمع المعلومات منها، لا شك أن ما ظهر لك هو مجرد خط ممزوج داخل الطين، ولكن لأن عينيّ المدربتين تعرفان أن كل علامة على سطح الطين لها معنى، فيمكنني تتبع الآثار وتكوين وجهة نظر، فليس هناك فرع من العلوم التحقيقية أكثر أهمية ومهمل إلى حد كبير مثل فن تتبع الآثار، ولحسن الحظ، كنت دائمًا أضع آمالاً كبيرة عليه، لقد شاهدت بعيني علامات آثار أقدام أفراد الشرطة بأحذيتهم الثقيلة، لكنني رأيت أيضًا مسار الرجلين اللذين مرا أولاً عبر الحديقة، وكان من السهل أن نقول إنهما كانا هنا قبل الآخرين، لأنه كان من الواضح أن علامات أقدامهما قد طمست، بواسطة علامات أقدام الشرطة، وبهذه الطريقة حصلت على نقطتي الثانية، والتي أخبرتني أن الزوار الليليين، كانا اثنين في العدد، أحدهما طويل القامة (كما حسبت من طول خطوته)، وآخر يرتدي ثيابًا بشكل فخم وأنيق، من الانطباع الصغير والأنيق الذي تركه حذاؤه ذو الرقبة الفخم».

«عندما دخلنا إلى المنزل، تم تأكيد هذا الاستنتاج الأخير. كان يتمدد أمامي رجل يرتدي الثياب بشكل فخم وأنيق، لذا فإن طويل القامة قد ارتكب جريمة القتل بالطبع، هذا إذا كان هناك قتل».

«لم يكن هناك جرح في جسد الشخص المتوفى، ولكن التعابير المرتعبة الخائفة على وجهه، أكدت لي أنه كان قد توقع مصيره قبل أن يأتيه، فالرجال الذين يموتون بسبب أمراض القلب، أو أي سبب طبيعي مفاجئ، لا يبدون بأي حال من الأحوال شاعرين بأي خوف أو رعب، هناك رائحة كريهة قليلاً، إذًا هناك سم ما، وقد توصلت إلى نتيجة مفادها أنه قد أُجبر على تسميمه، كنت قد وصلت إلى هذه النتيجة، لعدم وجود فرضية أخرى ستفيد في التوصل إلى الحقائق، فحوادث الإكراه على تناول السم تكررت من قبل، في عدة بلدان خارج

المملكة».

«والآن جاء السؤال الكبير عن الدافع. لم تكن السرقة سبب القتل، لأنه لم يتم أخذ أي شيء. هل كانت السياسة إذًا، أم كانت امرأة؟ كان هذا هو السؤال الذي حيرني».

«إن القتلة السياسيين يفضلون البارود والدم لإحداث أكبر أثر ممكن، ولكنهم أكثر دقة وأكثر حرصًا، إنهم محترفون، وكان هذا القتل، على النقيض من ذلك، قد تم بشكل عشوائي، والجاني قد ترك آثاره في جميع أنحاء الغرفة، لقد كان هناك طوال الوقت، يجب أن يكون قتلاً عن طريق قاتل مبتدئ وليس محترفًا، وعندما تم اكتشاف الكتابة على الجدران، كنت أميل أكثر من أي وقت مضى إلى رأيي، هذا قتل للانتقام إذًا، وتأكدت عندما تم العثور على الخاتم، فمن الواضح أن القاتل استخدمه لتذكير ضحيته بإحدى النساء المتوفيات أو الغائبات، وفي هذه المرحلة سألت جريجسون عما إذا كان قد أرسل برقية إلى كليفلاند، وسأل عن مهنة دربر السابقة، فأجاب كما تذكر بنتيجة سلبية».

«ثم شرعت في إجراء فحص دقيق للغرفة، ما أكد لي رأيي في طول قامة القاتل، وزودني بتفاصيل إضافية عن نوعية السيجار وعن طول أظفاره، ببساطة لم تكن هناك أي إشارات للقتل السياسي هنا، إن الدم الذي غطى الأرضية قد انفجر من أنف القاتل في لحظة إثارة، ويمكنني أن ألاحظ أن مسار الدم يتزامن مع مسار قدميه، الدم لا ينفجر بهذه الطريقة إلا من خلال العاطفة، لذلك لم أقتنع بالرأي الذي قال إن القاتل رجل أبيض، وردي الوجه، قويم الصحة، كما قال ذلك الشرطي البائس، وقد أثبتت نظريتي صحتها».

«بعد أن غادرت المنزل، شرعت في القيام بما أهمله جريجسون. أرسلت برقية إلى رئيس الشرطة في كليفلاند، وحددت تحقيقي بالظروف المرتبطة بزواج إينوخ دربر. كان الجواب قاطعًا. أخبرني أن دربر قد تقدم بالفعل بطلب حماية القانون، ضد منافس قديم في الحب، يدعى جيفرسون هوب، وأن هذا الرجل يهدد حياته ويتوعده بسبب أنه تزوج فتاته، وأن دربر، وعلى الأرجح جيفرسون هوب، سافرا إلى أوروبا لاحقًا هذا العام، تحققت من شكوكي، خاصة بعد أن عرفنا محتوى البرقية التي كانت في جيب دربر، (جيه إتش في أوروبا)، جيفرسون هوب في أوروبا، لذا بقي لي أن أعثر على القاتل».

«لقد قررت بالفعل في ذهني، أن الرجل الذي دخل إلى المنزل مع دربر، لم يكن سوى الرجل الذي كان يقود عربة الأجرة. وأظهرت لي علامات في الطريق أن الحصان تحرك بقائمتيه في منطقة محدودة، فأين كان سائق الأجرة ما لم يكن داخل المنزل؟ مرة أخرى، من العبث افتراض أن أي رجل عاقل، سوف يقوم بجريمة متعمدة تحت عيني سائق الأجرة، من المؤكد أنه سيبلغ عنه بالطبع، وأخيرًا، لنفترض أن أحدًا يرغب في أن ينقل شخصًا ما إلى ذلك المكان عبر لندن، من دون أن يشك أحدهم فيه، فلا بد أن يكون سائق أجرة بالتأكيد، لذا أيقنت أن جيفرسون هوب بالتأكيد سيكون مع سائقي الأجرة في ساحة متروبوليس».

«لو كان استنتاجي صحيحًا، لما كان هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنه سيتوقف عن قيادة عربات الأجرة، على العكس، من وجهة نظره، أي تغيير مفاجئ من المحتمل أن يلفت الانتباه إليه. ربما كان، لبعض الوقت على الأقل، سيستمر في أداء عمله كسائق أجرة، ولم يكن هناك ما يدعو إلى افتراض أنه سيعمل تحت اسم مستعار، فلماذا يغير اسمه في بلد لا يعرف فيه أحد اسمه الأصلي؟ أرسلت الصبية المشردين بشكل منهجي، إلى كل مالكي عربات الأجرة في لندن، إلى أن اكتشفوا الرجل الذي أردت، بكل نجاح وسرعة ومن دون أن ألفت انتباهه، لكن قتل ستانجرسون كان حادثًا غير متوقع، ولم يمكن منعه بأي حال من الأحوال. من خلال ذلك، كما تعلم وجدت الشرطة الحبوب السامة، التي

كنت أظن أنها موجودة بالفعل. والآن يا عزيزي واتسون، ترى أن الأمر كله عبارة عن سلسلة من التتابع المنطقي من دون أي خطأ».

«هذا رائع!»، صرخت بها من فرط الإعجاب، «يجب الاعتراف بقدراتك علنًا. يجب أن تنشر تفسيرك للقضية. إذا لم تفعل، فسأفعل أنا ذلك».

أجاب بهدوء: «يمكنك أن تفعل ما تحبه يا دكتور، والآن إلى الفقرة الأخيرة».

ثم أشار إلى فقرة في الصحيفة الصباحية، كانت تقول:

خسر الجمهور لحظات مثيرة من خلال الموت المفاجئ للسيد هوب، الذي كان يشتبه في ارتكابه جريمتي قتل السيد إينوخ دربر، والسيد جوزيف ستانجرسون.

من المحتمل ألا تكون تفاصيل القضية معروفة في الوقت الراهن، على الرغم من أننا على علم بأن الجريمة كانت نتيجة لخلاف قديم، ورومانسي، كان الحب والمورمون جزءًا منه.

يبدو أن الضحيتين كانا في شبابهما ينتميان إلى كنيسة المورمون الشهيرة، بينما ينحدر المشتبه فيه من سولت لايك كذلك.

إذا لم يكن للقضية أي تأثير آخر، فإنها، على الأقل، تبرز على نحو لافت للنظر كفاءة قوات الشرطة، وستكون بمثابة درس لجميع الأجانب الذين سيعملون بحكمة لتسوية نزاعاتهم في بلادهم، وعدم حملها معهم إلى الأراضي البريطانية، كما أنه ليس سرًّا أن القبض على المشتبه فيه يعود إلى الكفاءة المعروفة لمحققَي سكوتلاند يارد، السيدين لستراد وجريجسون.

تم القبض على الرجل، كما يبدو، في شقة شخص يدعى السيد شيرلوك هولمز، الذي قام هو نفسه، بصفته أحد الهواة غير المنتمين إلى الشرطة، بإظهار بعض المواهب في حل القضية، والذي نأمل، مع مثل هؤلاء المحققين المدربين، أن يصل إلى درجة ما من مهاراتهم. ومن المتوقع تقديم شهادة رسمية من نوع ما إلى الضابطين، كاعتراف مناسب بخدماتهما الجليلة».

«ألم أقل لك ذلك عندما بدأنا؟»، قهقه شيرلوك هولمز، «هذه هي نتيجة كل دراستنا في القرمزي: أن يحصلا على شهادة!».

«لا يهم يا عزيزي»، أجبت، «لدي كل الحقائق في مفكرتي هنا، ويجب أن يعرفها الجمهور. وفي هذه الأثناء، يجب أن تجعل نفسك مقتنعًا بأن النجاح سوف يأتي لصاحبه يومًا».

وتذكر المقولة اللاتينية:

«الناس يصفقون لي بحرارة، لكنني لا أحتفل إلا عندما أكون في بيتي، بعد أن أعد ما أملكه».

(تمت بحمد الله)

شكر خاص وتقدير

أحمد عبد المجيد، صاحب الفكرة لبدء هذا المشروع، صاحب الفضل في أن أستمر في ترجمة هذا العمل، حتى يرى النور بين يدي قارئه.

هاني عبد اللـه، الرجل الذي يحول الأحلام إلى حقيقة.

كل من شاركني بفكرة أو بمعلومة ساعدتني في إتمام هذا العمل.


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..